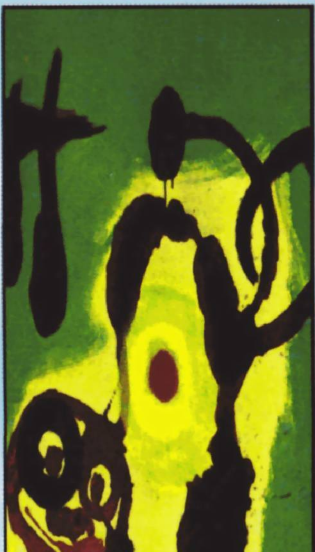
عزيز نيسين

ألا يوجد حمير في بلدكم؟



ترجمة: محمد مولود فاقي

الوطنية الحديدة

ألا يوجد حمير في بلدكم؟

* ألا يوجد حمير في بلدكم؟ «قصص»

* تأليف: عزيز نيسين

* ترجمة: محمد مولود فاقي

* الطبعة الأولى ٢٠٠١

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٢٢٢٠٥

هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ ـ ٤٤١٨١٧٢

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:

الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

* موافقة وزارة الإعلام: ٥٠٣٨٥

عزيز نيسين

ألا يوجد حمير في بلدكم؟

« قصص »

ترجمة محمد مولود فاقي

المؤلف: AZIZ NESIN

عنوان الكتاب بالتركية

SIZIN MEMLEKELTE
ESEK YOKMU

مقدمة

طلبت مني دار مليات للنشر تزويدها بمخطوط تقوم بنشره. فكرت مطولاً، ما هو العنوان الذي يجب عليَّ تقديمه لهذه الدار لتستطيع تسويق أكبر عدد من نسخه.

وردتني رسائل كثيرة من قرائي الأعزاء وأخص منهم من كان يسألني في حفلات التوقيع التي كنت أقيمها.

ـ أي من أعمالكم أو مؤلفاتكم ترونها أفضل من بقية الأعمال أو المخطوطات؟

لقد كانت تلك الأسئلة تحمل في خلفيتها بعض الدهاء والمكر لدى سائليها الذين وجهوها لي، وغالبيتهم ممن لم يقرأ مؤلفاتي وأعمالي. وبتعبير آخر فإن هؤلاء سيتخذون من محبتي أو كرهي لبعض أعمالي عذراً يخلصهم من قراءة أعمالي الأخرى. إذا قلت لهم من وجهة نظري هذا أحسن عمل عندي ربما يكون بالنسبة لهم أسوأ ما كتبت وبالعكس، وبهذه الطريقة يتخلصون من متابعة أعمالي وبالأحرى من قراءتها.

السؤال نفسه يوجَّه إلى كتّاب آخرين فيكون جوابهم على هذا النحو أو قريباً من هذا التعبير.

من جهتي أحب جميع مؤلفاتي .. لو لم أحببها لما كتبتها. أليس كذلك يا سيدي؟

سيكون جواب القارئ أو المثقف أو نصف المتنور:

ـ طبيعي جداً يا سيدي.. إن كل عمل تكتبونه هو بمثابة ابن لكم. لأن الإنسان لا يفرق بين أحد من أولاده.. أنت محق جداً.

هناك سرّ واحد يكمن بين طيات هذه الأسئلة الماكرة. والأجوبة الماكرة أيضاً. إنها الحقيقة التي لم ترَ «النور» والمعنى الذي يقف خلف هذا الجواب هو: «إن جميع أعمالي ومؤلفاتي رائعة وجميلة، لو اشتريتها كلها ستكون حسنة لي ولك».

الإجابة على مثل هذه الأسئلة صعب جداً بالنسبة إلي. لغاية «نيسان ١٩٩٥» نشرت وكتبت أكثر من مئة وعشرين كتاباً، إذا كان كل عمل أو أثر أو كتاب من كتبي سيكون بمثابة ابن لي.. في هذه الحالة.. يعني أن يكون عندي الآن مائة وعشرة أطفال أو أبناء أعزاء. أو أنا أب لمائة وعشرة أطفال. ويجب أن يكون بين هؤلاء الأطفال مجموعة من العجزة والأغبياء والمجانين.

وماذا سيكون جوابي لذلك القارئ السائل الذي يسأل بمكر ودهاء..

«أي الأعمال بالنسبة لك جيد وحسن ويستحق القراءة»؟ الجواب على هذا السؤال: «أفضل كتاب بالنسبة لأحدهم ربما يكون أسوأ كتاب بالنسبة لشخص أو قارئ آخر» في مثل هذه الحالات.. أيكون بمقدوري أن أجيب الشخص السائل.. أحب كتاب إلي.. هو هذا أو ذاك.. لا أستطيع إبداء الرأي أبداً.. ولكن عليَّ أن أجيب.. بطريقتي الخاصة وبنفس المكر والدهاء.

ـ أحسن كتاب وأحب كتاب وأجمل كتاب عندي.. هو أكثرهم بعدد الصفحات، وأغلاهم سعراً.

فكرت بكل هذه الأمور وأنا أجهز الكتاب الذي ستنشره «دار مليات»، ماذا يجب أن يكون محتوى هذا الكتاب الذي يجب أن تباع منه نسخ كثيرة. يجب أن يكون رخيص الثمن.. ويتضمن مقتطفات لمائة وعشرة أعمال من أعمالي.. أي يجب أن أضع فيه قلب ولب كل عمل من أعمالي.

ولكن من المستحيل جداً أن أضع محتوى مائة وعشرة كتب في مائة وستين صفحة. ولكن أستطيع أن أختار مجموعة من القصص من هذه الكتب الكثيرة وأضمها في مائة وستين صفحة. وهكذا ظهرت منتخبات من أعمالي اخترتها بنفسي. لكن هل هذه القصص هي الأحب والأفضل عندي؟ لا أضع نفسي في هذا الموقف الحرج، وأستطيع القول أنها باقة من القصص التي أحبها ويحبها قرائي الأعزاء.

أما وأعمالي التي نشرتها حتى الآن فهي على الشكل التالي.

شعر ـ شعر ناقد ـ قصص ساخرة ـ قصص غير ساخرة ـ روايات ـ مسرحيات ـ كتب أطفال ـ ذكريات ـ مقالات في الزوايا ـ كتابات عادية ـ محادثات ـ وأخيراً الرسائل.

حاولت أن أضمّن هذا الكتاب مجموعة من القصص والأعمال والكتابات التي أتمنى أن تعجبكم.. وأنتم الذين ستقررون إن كنت مخطئاً أو على صواب.

وبدلاً من أن أقدم كتاباً سميكاً كثير الصفحات وغالي الثمن، وهو الذي يدر عليَّ أموالاً كثيرة.. فقد قدمت لكم مختارات.. ثقيلة الوزن في محتواها وخفيفة السعر في ثمنها، حيث تجدون فيها مقتطفات من مؤلفاتي التي بلغ مجموعها مئة وعشرة كتاباً.

تشويقية ٢٨ آذار ١٩٩٥

ذكرى الليلة الأخيرة من حياتي

قبل كل شيئ يجب أن أقول لكم.. هذه الكتابة ليست قصة. أريد أن أكتب تلك الليلة.. بحذافيرها.. دون أن أقطع منها شيئاً. ودون أن أغير من مضمونها. أو أضيف عليها شيئاً.. بكل مشاعري وأحاسيسي.. وأفكاري.. لقد مضى ستة وثلاثون يوماً على تلك الحادثة أو الليلة.. ولا أدري إن كنت قادراً على كتابتها كما هي.. ولكنني سأبذل قصارى جهدي في سبيل ذلك.

إن لم تكن هذه الكتابة قصة.. فما هي إذن؟

ربما تكون نوعاً من التفهم إو الإفهام.. أو ذكرى.. المشاعر والأحاسيس المتتابعة في طريق الموت لمدة الساعتين أو الثلاث.

الساعات التي تفصل وتصل عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ أي الليلة الأخيرة من عام ١٩٩١ والصباح الأول من عام ١٩٩٢.

اليوم الأخير من كل عام أشعر به كأنه أتعب وأقسى يوم بالنسبة لي، لأنه يجب علي أن أجهز في ذلك اليوم مجموعة من الهدايا لأطفال «وقف نسين»، وأقدمها في تلك الليلة التي تسمى برأس السنة. وهذه ليست عملية سهلة كما يراها البعض من الخارج. أي من خارج إدارة الوقف. أقول في نفسي لو أجهز الهدايا قبل إنتهاء العام.. ولكن لن أنجح في ذلك أبداً.. أظل حتى اليوم الأخير لاختيار الهدايا التي سأقدمها.

(ملاحظة: عمد عزيز نيسين قبل موته بسنوات طويلة على بناء وقف أسماه «وقف عزيز نيسين» كان يأخذ كل عام إلى وقفه، مجموعة من

الأطفال الفقراء الذين لا معيل لهم، ٢٥ طفلاً في كل عام ويبقيهم عنده، يرعاهم ويعلمهم حتى يتخرجوا من الجامعات.. المترجم).

عندي ثلاثون طفلاً.. ويصل عددنا مع الضيوف والعاملين في الوقف إلى ٤٥ شخصاً. يجب أن أقدم لكل منهم هديته الخاصة.. أما أطفالي فيجب أن أقدم لهم من ثلاث إلى خمس هدايا. ويزداد عددها اضطراداً بصغر الطفل.. أكثرهم صغراً يأخذ هدايا أكثر ممن يليه في الكبر وهكذا. ومع أن هدايا الأطفال الصغار ليست قيمة وثمينة كهدايا الكبار.. إلا أن كل هدية لا بد أن توضع داخل علبة خاصة.. وفق أحجامها وأشكالها.. ثم تُزيَّن وتُلف بأوراق ملونة وأشرطة.. لماعة لا أدري ما يسمونها.

ومن أجل تهيئة هذه العلب والأوراق، أظل أعمل طوال العام لاختيار علب من أحجام وأشكال متعددة وأوراق ملونة ذات نجوم جميلة، وأكياس رائعة وخيوط زينة ملونة.. كل هذه ليست أشياء جديدة نستعملها للمرة الأولى... بعد استعمالها في نهاية كل عام.. نجمعها ثانية ونضعها في مكان آمن لنستعملها في العام المقبل ونظل نستخدمها لمدة خمس سنوات بعض الأحيان.. ثم نحفظها في موقد لنحرقها عند اللزوم.. وإذا جاز لنا قول الحقيقة.. إنه من الصعب إتلاف أي شيء من الأشياء، لأننا لا نستطيع الحصول عليه ثانية.

وأظل طوال العام أجمع الهدايا.. وفي بعض الأحيان أحضرها من الخارج أثناء زياراتي وسياحاتي المتعددة لبعض الدول، وبعضها أشتريه عند تجوالي داخل الوطن.. بعض الأحيان أشتري الهدايا من الباعة المتجولين في سوق استانبول. وبعض الهدايا يرسلها قرائي الأعزاء.. أو الضيوف الذين يحضرون لزيارتي في الوقف من خارج تركيا. وأقدم هذه الهدايا للأطفال في أعياد ميلادهم.. وفي مناسبات الأعياد الأخرى.. أما أغلى الهدايا فتقدم في عيد رأس السنة من كل عام.

ربما تسألون عن ماهية هذه الهدايا؟ ومحتواها؟ وماذا ينقصها؟ فيها أشياء كثيرة.. بالونات ملونة من أحجام صغيرة وكبيرة، وبالونات مزمارية.. والمزامير النفخية الجميلة.. والألعاب النطاطة، وسيارات معدنية صغيرة مثل «التاكسي - الحافلة.. شاحنات.. عربات إطفاء.. وسيارات الإسعاف.. وسيارات البوليس» وأقنعة بأشكال وألوان مختلفة.. وكرات اليد والقدم.. وأنواع مختلفة من الدهانات.. والمعجون الملون.. ودفاتر بلاستيكية للتلوين.. دفاتر لجمع الطوابع.. ألبومات، وآلات نفخ موسيقية صغيرة وساعات، وصغار الدببة بألوان مختلفة.. وفيلة.. وعرائس.. بعضها تنام عندما تمددها وبعضها تبكي عندما تضع قدمك على بطنها.. وأقلام ملونة كثيرة، وأطقم شطرنج.. وكنزات صوفية للصبيان.. وللبنات حلي وأساور تقليدية من مختلف الأنواع والألوان. وأسهم.. وأهداف الأسهم.. دفاتر ذكريات.. وأقلام حبر.

وللكبار، محفظات جلدية ثمينة مرسلة من أوروبا.. وأطقم ميكانيكية وإشاربات.. وزنانير ودفاتر من الجلد.

في العام الماضي، أصابني إرهاق شديد من تجهيز هدايا عيد رأس السنة، فقد استغرق ترتيب الصالون وتزيينه وقتاً طويلاً للاحتفال بعيد رأس السنة.. والأطفال الذين مضى على إقامتهم خمسة أعوام إلى عشرة أعوام.. أصبحوا يعرفون طريقة التحضير والتجهيز على أكمل وجه.. وهم يقومون بجميع الأعمال. وعلى امتداد السقف من كل الأطراف.. ثمة بالونات وأوراق ونجوم، وأوراق زينة أخرى تعلق في هذه المناسبات، وأعلام ورقية صغيرة لعموم دول العالم.. تتدلى بين الجدران وبمحاذاة السقف.

أما المُخرجة «روشان أولوسوي» فتقوم بدورها بتجهيز مأدبة عيد رأس السنة قبل يومين تقريباً. فواكه مجففة كثيرة ومتنوعة.. وفطائر مخصصة

لرأس السنة وقوالب كاتو وأنواع من الشوكولا والفواكه. وطبيخ من صدر الوز.. وسلطات روسية.. ومحاشي متنوعة بزيت الزيتون.. و«طاووق الجركس» والمناقيش ومختلف أنواع السلطة وأشياء أخرى كثيرة. والجميع يشربون الخمر في تلك الليلة.. صغيرنا وكبيرنا.. أما أنا وعدة أشخاص فنشرب العرق.

ويقوم أطفال المرحلة الإبتدائية «الإعدادية» في ذلك الصالون المزين الجميل.. بالعزف على بعض الآلات الموسيقية.. وقد وقفوا على منصة مرتفعة بعض الشيء والتي تشبه منصة المسرح. حيث يغنون ويرقصون ويعزفون دون توقف.

أما الهدايا فتوزع بالقرعة.. وكان كل واحد منهم يأخذ منها ما يناسبه أو يتمناه.. فمثلاً.. الحلق الذهبي الصغير يعطى للفتيات وكذلك الحلي الأخرى.. هذه القرعة تتدخل فيها خفة يدي في أكثر الأحيان.. كي يأخذ كل واحد ما يتمناه وما يشتهيه.

ثم نبدأ بلعب الميسر بطريقة التسلية، فقد وضعت كميات من أجزاء النقود داخل علبة معدنية كبيرة على امتداد العام. وأقوم بتوزيع هذه النقود.. بحيث لا يأخذ أحدهم أقل من خمسة آلاف ليرة، جميعنا نلعب معاً كبيراً وصغيراً. يكون اللعب بسحب الأرقام من الكيس.. في البداية تباع الأرقام.. طبعاً أنا من يبدأ أولاً بسحب الأرقام من الكيس.. عندما أمد يدي وأسحب ورقة فإذا كانت تحمل الرقم ٣٤.. أصرخ في البداية أربع ع ع عُ... فالذي معه رقم أربعة ينفعل كثيراً.. وأصرخ بالثلاثيين... فتحدث ضجة وتأوه.. وصراخ.

التلفزيون مفتوح.. ولكن ما من أحد ينظر إليه.. ثم نبدأ بلعب سباق الخيل.. ثم بلعب «ضع خمسة وخذ عشرة» ثم نبدأ بلعب «روليت».

في الليالي العادية.. كان الأطفال الصغار ينسحبون إلى غرف نومهم، عندما تحين الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، أما في ليلة عيد رأس السنة فيظلون معنا حتى ما بعد منتصف الليل.. وبعد الانتهاء من الاحتفال ينسحب الأطفال إلى غرف نومهم واحداً تلو الآخر.. أما أطفال المرحلة الإعدادية فيذهبون للنوم قبل الثانية.. طبعاً دون أن يأمرهم أحد بالنوم أو الانسحاب.. ولا يحق لأي طفل أن يقول للآخر «هيا إلى النوم» لأنه لا يوجد أنظمة وقواعد يضعها الآخرون.

اعتاد الأطفال الصغار عند مجيئهم.. إلى هذا المقر. أن يضع كل منهم الأنظمة والقوانين لنفسه فقط.. لا يجوز لأحد أن يتدخل في شؤون الآخرين.

وهكذا ففي يوم الثلاثاء الموافق ٣١- ١٢- ١٩٩١ وكما في نهاية كل عام، كنت في منزلي أحضر مجموعة الهدايا لأطفالي الأحباء.. وإذ بقلبي.. آه من قلبي هذا.. فقد أصابتني نوبات قلبية متتالية. هذه النوبات كانت تتكرر معي مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر ومنذ أكثر من خمس سنوات. أحسُّ أن طاقة جسمي تتناقص رويداً رويداً وبثقل كبير.. وشعرت بأني أكاد أن أفقد حياتي.. فقد غطت عيني غشاوة وبتُّ أرى الأشياء غير مألوفة وقلبي يكاد يقف في مكانه.

تستمر النوبة القلبية، لمدة نصف ساعة على الأقل. بعض الأحيان تصيبني وأنا في الطائرة أو التاكسي وفي الإجتماعات.. وبعض الأحيان في منزلي.. تصيبني هكذا.. دون سابق إنذار. وفي كل مرة أظن أنني ذاهب إلى الموت لا محالة.. وهذه الميتة لا تعد ميتة سيئة على ما أعتقد لأن الإنسان يغادر الحياة خلال لحظات. إذا ما وضعت تحت لساني حبة تسمى «ايزونديل» تذهب عني النوبة بسرعة. ولكن مع الأسف الشديد هذا الدواء الذي يشفيني من القلب يؤذي العين.. ويؤثر على ضغطها.

ولهذا السبب لا أستعمل الدواء إلا في أوقات حرجة جداً.. كي لا تتأذى عيوني.

في صباح ٣١ كانون الأول أصابتني النوبة فجأة.. ولكنها لم تستمر طويلاً ولم تطل.. ومهما كانت الأمور فالحياة تسير وتسير وستسير على الدوام... ثم الأعمال مرة أخرى.. والكتابات والرسائل التي يجب أن أجيب عنها والجرائد التي يجب أن أتصفحها وأقرأها والمجلات والكتب والملاحظات التي يجب أن تدون أولاً بأول.

أما بالنسبة لهدايا الأطفال.. عندي متسع من الوقت حتى المساء أستطيع أن أجهزها.

أسلوبي في العمل هو: اترك عمل اليوم إلى الغد.. والعمل الذي بحاجة إلى يوم كامل.. أقول في نفسي أستطيع إنجازه في ساعتين وأتركه.. وفي النهاية.. لا أستطيع أن أصل بالعمل إلى نهايته.

بدأت بتغليف وتعبئة هدايا الأطفال عند الساعة الرابعة بعد الظهر.. «لف هيك.. روح إلى هناك».. حركة دائمة مستمرة، فقد أنهيت العمل حوالي الساعة السابعة مساء.. وشعرت بإنهاك وتعب شديدين. ناديت أطفالي الكبار.. أمرتهم أن يملؤوا الأكياس بالهدايا.. وفجأة سقطت على الأرض.. بوووو.. هذه النوبة لا تشبه سابقاتها أبداً. هذه المرة.. تمام.

بدأت الكتابة تحت عنوان «الليلة الأخيرة من حياتي» ليست التي كتبتها حتى الآن.. ولكن ما سيأتي فيما بعد.

تمددت على المقعد، لقد شعرت بآلام حادة في قلبي.. آلام قوية جداً.. كنت أقاوم الآلام أرفع رأسي وأجلس.. أتمدد على ظهري.. أتقلب يميناً ويساراً.. أنبطح على صدري.. دون جدوى، كأن ثمة جرح قديم في قلبي.. تبدأ السكاكين بجرحه مجدداً..

هذه النوبة لم تكن تشبه النوبات التي مرت معي حتى هذا اليوم. دواء

«ايزونديل» موجود فوق الطاولة التي لا تبعد عني مترين ولكنني لا أستطيع الحراك.. أصبحت الآلام لا تُحتمل.. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً.. وقد وصلت إلى حالة مزرية جداً.

كنت أقول في نفسي.. هذه المرة تمام.. هذا هو الموت يستلمني.. لا أبداً، لا يستطيع الموت أن يستلمني هكذا دفعة واحدة. ربما يستطيع أن يأسرني، قلت في نفسي: لا تسلم نفسك.. حتى لو استلمك الموت!!.

ومن الواضح أنه سيأخذك أسيراً معه.. حتى للأسر دون استسلام كرامة كبرى.

هبط الظلام...

آه.. يا أطفالي الأحباء.. إنكم الآن في معمعة الفرح والسرور تنتظرون الهدايا التي سأحملها إليكم.. وقد دنت منيتي واقتربت ساعة موتي.

أسمع الآن أصوات خطاكم، ضحكاتكم.. يا لهذه الخرافة؟!!

ماذا لو وافتني المنية بعد احتفال رأس السنة؟

كنت أشعر بأن روحي تنسحب من جسدي.. إذن سأموت ها؟

آه.. لو هبط أحدهم من الطابق الثاني وأعطاني هذا الدواء.. «إيزروديل».

لا يستطيع أحد أن يساعدني بعد الآن. كم ستدوم هذه النوبة يا ترى؟ عشر دقائق أم نصف ساعة؟ تووه.. سيكون الاحتفال سماً للأطفال.

والشيء المؤسف أنني لن أكتب قصة موتي. وهذا ما أحزن عليه أشد الحزن. الكاتب.. يكتب حياته كلها.. ولكنه لا يستطيع أن يكتب موته.. مع أن الموت حادثة مهمة في قصة الحياة.. وإنني أرحل من الحياة دون أن أكتب وأسجل أهم حادثة في حياتي.

أتذكر مالبارتا..

أعتقد أن كل كاتب.. وربما كتّاباً اختصاصيين.. يعمدون إلى تسجيل مشاعرهم وأحاسيسهم وأفكارهم.. عندما يشعرون بدنو أجلهم. ولكن هذا مستحيل.. إنها الحادثة الوحيدة التي تظل دون كتابة أو تسجيل.

هل يتمنى كل كاتب حقيقة هذا الموت؟ هل يترك للدنيا أنفاسه الأخيرة.. وربما شماتة تحوم حوله.

لقد خطر بذاكرتي «مالبارتا» عندما طال عليه الموت.. أمر أن يوضع إلى جانبه آلة تسجيل، وظل يتحدث حتى الرمق الأخير أو النفس الأخير من حياته. سجل مشاعره وأحاسيسه وحشرجة أنفاسه، بكاءه، أنينه، آهاته.

أسمع صوت أقدام تقترب من الباب.. هذه الأقدام لأطفال صغار،يُفتح الباب.

ـ داداااا.. الطعام جاهز.. ننتظرك.

حقاً إنه صوت.. يخرج من فمه كخروج الطلقة من فوهة المدفع.

ـ ابدأوا.. سأحضر حالاً.

آه.. لن أسجل هذه الأحداث.. إن عدم كتابتي عن كيفية موتي أصعب علي وأشدُّ حزناً من الموت نفسه.

ثم.. كم أنا رجل أبكم.. أتذكر سروالي الداخلي.. حيث أصبت في الشهر الأخير بإسهال لمرات ثلاث.. وبعد أن عدت إلى حالتي الطبيعية أصابتني نزلة حادة.. قالوا أن إصابتي بالرشح كانت من جراء اغتسالي بالحمام، حيث مضى عليَّ أكثر من أسبوع دون أن أستحم. أبدلت قميصي الداخلي.. ولم أبدِّل سروالي الداخلي. ماذا سيحصل الآن؟ لا أستطيع أن أصعد إلى غرفة نومي وآخذ سروالاً نظيفاً..

مرة ثانية أسمع صوت أقدام.. طفل صغير آخر ينادي:

ـ داداا!

هذا صوت «سجكين».

ـ الجميع جلسوا على المائدة... هيا..

ـ سأحضر بعد قليل.. ابدأوا أنتم بالطعام.

أفكر بوصيتي.. لماذا لم أقم بكتابتها حتى الآن؟ كان علي تسجيلها منذ وقت طويل. حضرت نفسي لكتابتها مرات كثيرة.. كنت أحسب أن الموت لن يأت أبداً.. وأنه بعيد من هنا.. آه.. لو متُّ في وقت آخر؟ لماذا الآن؟ وثلاثون طفلاً ينتظرونني على مائدة الطعام..ز لو مت بعد انقضاء الحفلة.. أو قبل يومين أو ثلاثة من الآن.

ـ دادا!!

هذه المرة جاءت «سما» والتخلص منها صعب جداً

ـ أنا مريض يا ابنتي.. اذهبي إلى عملك «روشان» ليحضر إلى هنا.

جاء مخرج الوقف. أشعل النور.. عندما رآني على هذه الحال اضطرب كثيراً.. هل أطلب منه الدواء الموجود فوق الطاولة! هل أضع حبتين دفعة واحدة تحت لساني.. يقترح السيد «روشان» استدعاء طبيب من «جاتلجا» لأن ذهابنا إلى مشفى الخدمات الإجتماعية في «سماطيا» يدوم أكثر من ساعتين.. لا أستطيع أن أتحمل ذلك.. ثم أننا في يوم خاص جداً.. سيعمد الطبيب المناوب إلى استدعاء الطبيب المختص من منزله بالهاتف.. أسوأ وقت للموت، هو هذا الوقت بالذات.

ـ اصعد يا سيد «روشان» إلى الأطفال وقل لهم أن يشرعوا بتناول الطعام.

ـ الأطفال لن يأكلوا لوحدهم.. يطلبونك.. يريدون أن تأكل معهم.

ـ طيب.. طيب.. اصعد أنت.. ولكن أطفئ الضوء من فضلك.

كم بقي لي من الأعمال الكثيرة التي لم أنجزها. أموت وأنا مدين للدنيا.. ومَن مِنَ الناس لم يمت ولم يرحل وهو مدين لهذه الدنيا؟ هناك من ماتوا وهم يطلبون من الدنيا وليسوا مدينين لها. مثل أنشتاين.. وشكسبير.

كان من الواجب عليَّ أن أسجل الأعمال التي لم أكملها في وصيتي.

وأهم شيئ يجب أن أسجله في وصيتي.. مراسيم الجنازة.. هذه العملية التي تُعد ذات وجهين.. وأشعر من كل وجه بالضيق والغثيان.

ثمة سكين صدِئ ينغرس في صدري.. ألم لا يطاق، لم أشهده من قبل أبداً.. تمنيت أن أكون وحيداً في مثل هذه الحالة.. وليس مع أطفالي.. أطفال الوقف.

لو استطعت أن أكتب وصيتي.. لكانت المادة الأولى «أن لا تقام لي جنازة» ولا إعلانات في الصحف والمجلات عن خبر وفاتي.. ومثل الأعمال التي تأخرت عن القيام بها تأخرت أيضاً عن كتابة وصيتي.

عندما أموت.. بكل تأكيد لن أعلم أحداً بخبر جنازتي ولكنني أشعر وأنا في هذه الحالة.. وقبل الموت.. بأن الجنازة ستقام كما هي العادة مع كل الأموات.

أعداد كبيرة من الناس ستشارك في تشييع جنازتي. وهي تقول «إننا نقوم بواجبنا الأخير تجاهه». حتى الناس الذين لم يقوموا بواجبهم تجاهي في حياتي.. ماذا أفعل كي لا يقيموا لي مأتماً جنائزياً مثل الآخرين.. آه.. كان عليَّ أن أسجل ذلك في وصيتي.. هل آخذ حبة أيزورديل أخرى يا ترى؟؟

الآلام تزداد مع مرور كل دقيقة.

أنا أريد.. أن يحملوا جثتي إلى أحد المشافي الحكومية.. ويضعوها في خدمة العلم.. ليتدرب من خلالها الأطباء الشباب الذين يدرسون

الطب.. هذا ما كنت أرغب بكتابته بشكل خاص في وصيتي.

يجب أن يستفيد كل أفراد الشعب من كل ما عملته و ادَّخرته وبنيته.. جميع الناس دون استثناء. أريد أن لا يتضرر أي شيء أنتجته ليصبح هباء منثوراً.. والشيء الذي سيبقى لي جسدي.. ليستفيدوا منه بقدر استطاعتهم. ولكن صديقي الطبيب الذي أحبه كثيراً يعارضني لفكرتي هذه.. دون أن يذكر السبب.. أفكر بالسبب.. ربما يكون الإحساس أو الشعور بالذنب إلى ما هنالك.

لو كتبت وصيتي لكانت المواد الثلاث قد صارت.. موضوع القبر.. طبعاً أنا حر في تفكيري.. وتفكيري خاص بي وحدي.

لا أريد أن يعرف أحدٌ قبري.. أن لا يكون عاماً.. وليبنِ الآخرون ما يريدون من القبور. أما أنا لا أريد أن يكون لي قبر.. أنا لا أعتقد بوجود الروح.. حتى أفهم القبر وأجده ضرورياً.

وليأخذوا جسدي بعد أن يأخذ طلاب الطب الدروس والعبر، إلى حديقة وقف نيسين.. وليدفنوه هناك.. لا أريد أن يضعوا حجرة أو شارة تدل على أني أرقد هناك في القبر.

حتى الأزهار لا أريد أن يضعوها على ضريحي، لأني لا أستطيع استنشاق رائحتها. ولا أتلذذ بالنظر إليها وهي فوق جسدي والتراب. إني أحزن من أجلها، لا أرغب أن أراها تذبل دون أي سبب هكذا.. الأزهار يجب أن تجلب السعادة والفرح لمن تقدم إليهم.

عندما يُدفن جسدي.. يجب أن لا يبقى طفل واحد من أطفال وقف نيسين.. يجب أن يُبعدوا من هناك.. ولا أريد نواحاً ولا حزناً ولا بكاءً ولا كلمة رثاء.. يجب أن يُنتسى مكان دفني مع مرور الزمن.. ويجب أن تستفيد الطبيعة من ذلك المكان الصغير.. لتنبت فيه الأعشاب.. وتزرع الأشجار وتزهر الورود.

والطلب الأخير تذكر أن الآلام وضعت نهاية أشعاري.

«عندما أموت لأحيا في الآخرة

وأتمنى أن لا أعيش»

وبما أنني لم أكتب وصيتي.. أخشى أن لا يشكل موضوع القبر مسألة حرجة لمعارفي وأصدقائي.

القبور في تركيا مقسمة وموزعة حسب الطوائف والأديان، ولا مكان هناك للملحدين أو قبور للملحدين. وأنا حسب ما يقوله المسلمون، من الذين لا مكان لهم على الأرض.

لو استطعت أن أكتب وصيتي.. هناك مادة مهمة جداً كان يجب أن أكتبها وأسجلها.. ولو متُ قبل أن أكتب وصيتي.. وهذا هو الظاهر - كتاباتي للنساء اللواتي أحببتهن. رسائلهن وصورهن معي.. وذكرياتي وحبي.. والتي أحببتها.. نسائي اللواتي اعتقدت بأنهن أحببنني.. واللواتي خيبن ظني.. واللواتي ظهرن كأنهن أحببنني.

كلها موجودة في مكتبتي ضمن ملفات خاصة.. وثائق الحب تلك الكثيرة العدد هي أغلى ما عندي من الثراء والغنى.. وثائق تهينني.. والوثائق التي خُدعت بها.. فيها آلامي.. آمالي.. اللواتي صدقتُ بهن حبيباتي.. اللواتي تسببن في زيادة دقات قلبي.. صيرورتي سحاباً.. صيرورتي أمطاراً.. ورياحاً.

كل تلك الملفات يجب أن تختفي بعد موتي مباشرة.. آه لو كتبت وصيتي، وأوضحت كل ذلك.. كل ملف يجب أن يسلم باليد لصاحبته أو يرسل إلى عنوانها.. وأكثرها يجب أن يحرق.

أما نسائي الثلاث فلهن صندوق خاص.. يجب أن يعاد كل شيء يخصهن مباشرة، صندوق خاص مغطى بالصدف والفسيفساء.. كان يجب أن أسجل كل ذلك في وصيتي.

في تلك الملفات ثمة زهور وأوراق ذابلة.. ناشفة.. فيها المواد الخام لأشعاري.. كتابات سجلت على أوراق صغيرة.. تذاكر المسرح.. دعوات لحفلات موسيقية.. جلها يجب أن يحرق.

ثمة روايات وذكريات ومسرحيات كانت ستخرج من هذه الملفات.. لأنني لم أستطع حرقها شخصياً.. لو فعلت ذلك فكأنني أحرق نفسي. فيها أرواح.. قُطعت وقسمت من روحي.. هكذا يتراءى لي.

رويداً رويداً يتقلص ألم قلبي

يأتي السيد روشان ثانية.

ـ كيف حالك؟

ـ أنا أتحسن شيئاً فشيئاً

ـ مازال الأطفال ينتظرونك.

ـ أنا قادم.. قادم.. اصعد أنت.

أتحرك من مكاني وأنا أسند جسدي الميت إلى الجدار والكراسي.. أخرج من الباب.. ثم من باب الممشى.. أعرف درجات السلم.

في البداية ستة أدراج.. فسحة صغيرة.. ثلاث درجات.. ثم عشر درجات.

لم أكن أرغب أن يراني أطفالي وأنا أصعد السلم مستنداً على هذا وذاك من الأشياء.. وأمشي قليلاً ثم أقف بعض الوقت.. عندما دخلت الصالون المزين.. حاولت أن أشد على نفسي وأمشي رافعاً صدري كعادتي.. وأزرع بعض الابتسامات في وجهي.. كانوا قد تركوا مكاني فارغاً، عندما جلست نظر الجميع إلى وجهي.. صرخت فيهم:

ـ أين الشراب.. املؤوا الأقداح..

ويبدأ الضجيج الفاتن.. أصوات الملاعق والشوك والكاسات وصوت الأطفال غير المتوازن.

أنا والسيد روشان سنشرب العرق.

ترفع الأقداح نحو الأعلى.. المائدة حافلة لا ينقصها سوى لا...

لم أشرب العرق.. لم أستطع ذلك.. تظاهرت كأنني أشرب. حتى الطعام لم أستطع أن أتناوله.. أحرك يدي وكأنني آكل.

في الصالون.. أطفال يعملون «باندوميم» أحد الألعاب التي أخرجها الوقف.. واللعبة عبارة عن صب النقد لمسؤولي الوقف.. وهناك صباح واحد في الاسبوع يُقدم فيه الحساء كفطور.. ويعلنون عن عدم حبهم للحساء بواسطة هذه اللعبة.. فهمنا.. فهمنا.. لن يقدم الحساء بعد الآن للفطور الصباحي.

إن النقد عن طريق الفن يعجبني كثيراً.

يغنون...

أفراح.. وقهقهات... وضحكات.

من المفروض أن توزع الهدايا بالقرعة.. كل واحد يرفع الهدية التي يستلمها. أجلب العلبة الكبيرة التي ملأتها بالنقود الصغيرة على مدى العام.

وزعت النقود بالتساوي لكل الأطفال.. والآن سيسحب «التومبلا» الأرقام.. ولأول مرة لن أسحبها أنا.

ثمة راقصة شرقية تهز خصرها في التلفزيون.. ما من أحد ينظر إليها. أبتسم غصباً عني.. وأطلب منهم أذناً كي أنام.. كي أرتاح.. لأول مرة لن أكون معهم في ليلة رأس السنة.

أمشي مرفوع الرأس.. وأنا أشد على نفسي شداً.. أدخل غرفة نومي.. وأترك نفسي في الفراش.

سكن ألم قلبي.. ولكني كمن يحمل الدنيا على ظهره.

أفكر برجوعي من الموت.. حتى أي وقت يا ترى؟ من يدري؟

نمت على صوت الأطفال وهم يضحكون ويقهقهون.

لم أمت.. ولكني حاولت جاهداً أن أسجل كل أحاسيسي ومشاعري لتلك الليلة التي سأموت فيها.

لم أمت.. ولكن تلك النوبة القلبية قد أخبرتني أن الموت قريب مني.. كأن الموت قد أعطاني إذناً كي أكتب وصيتي. وليس عندي الوقت الكافي لأسجلها حتى يوم العملية. ولكني سجلت أهم ما كنت أريده.

أتمنى أن أنهض سالماً معافى من العملية الجراحية. أي إنسان ينام على تلك الطاولة ولا يتمنى ذلك؟ لو أعطاني الموت إذناً للمرة الثانية سأحاول أن أكتب كل شيء على أنني مدين للحياة. وأعرف إستحالة ذلك.. ولكن لا أريد أن أموت مديناً للدنيا. وكما رأيتم.. هذه الكتابة ليست قصة إنها زيارة الموت لي في تلك الليلة على شكل تحذير.

○ ○ ○

القصص الساخرة

ستة حراس تحت النملة

ألا توركا برلود:

يللي.. يييللااللي.. لا.. للالي ي ي يللي يللالي.. يللااللي.. يللي ي ي.. يللالي ي ي.. يلللا لي ي ي ي.. لال.. لال.. لال.. لي ي ي ي.

محادثة في دولة متخلفة.

في بلدي لا يعيش سوى أطفال الأغنياء.

في بلدي.. لا يعيش سوى الشباب الأغنياء.

في بلدي لا يعيش سوى المسنون الأغنياء.

في بلدي.. يللااللي.. يللالي ي ي ي .. يللاي يا (حبيب) يا يا يا يا..

مونولوج.

ما تزال طفولتي التي لم أعشها تتحرك في أعماقي.

طفولتي التي لم أعشها أبداً.. لم أملك لعبة واحدة في حياتي.. لا قطارات.. ولا سيارات صغيرة خاصة بي.. ولا سفن تدور في وعاء مملوء بالماء.. لم أستطع أن ألعب لعبة (الميلا). ولا لعبة القفز.. لم أطيّر طيارة ورقية أبداً.. ولم أحط إطاراً.. ولم أملك صالوناً أبداً.

ذهبت مرّة مع أمي في زيارة لبيت أحد الأغنياء بمناسبة العيد. كان ابن

الغني يملك ألعاباً وأغراضاً كثيرة.. كثيرة جداً.. حاولت لمس إحدى قطاراته التي كانت تسير على خط حديدي.. مددت يدي.. وإذا بأمي تهمس في أذني.. تمنعني وهي تقول:

ـ جيشت.. انتبه، أن تخربها.

سحبت يدي.

كورو..

في طفولتي كنت أقول لنفسي دائماً: «عندما سأكبر سأكون غنياً.. غنياً جداً.. وعندما أصبح ثرياً.. سيكون عندي ألعاب.. وأغراض كثيرة.. سأشتري منها الكثير والكثير جداً.. وووو.. كثيراً جداً بقدر كبر الدنيا. سيكون عندي ألعاب بشكل كثـ يـ يـ يـ ر».

يعيب الناس على الكبار اللعب بألعاب الدمى.. ولأجل ذلك سأملأ بألعابي غرفة خاصة بي . وفي الأيام التي لا أذهب فيها إلى العمل.. سأدخل الغرفة وأغلق الباب خلفي.. وألعب دون أن يراني أحد من الناس ويسخر مني.. سيكون عندي قطارات كثيرة.. سأضعها على الخط الحديدي تووت.. توووت.. جيه.. جوف.. جيه جوف ف.. جيييه جوف ف ف.

سيكون عندي البالونات الملونة.. والتي تصدر أنغاماً مختلفة ؟.؟.؟.؟.. والمراوح الورقية الكبيرة. وأمتعة وأدوات وألعاب أخرى كثيرة.

في بلادي يصادف عيد الأطفال.. عيد تأسيس مجلس الأمة الكبير في ٢٣ نيسان..

الحادثة الأولى:

سئمت من جلوسي الطويل في المنزل في عيد الطفل. عند المساء..

خرجت من البيت.. لزيارة أحد الأصدقاء وهو طبيب يسكن في حي قبالة الميناء. هو الآخر كان قد سئم الجلوس الطويل في المنزل.كنا ننظر إلى الشارع من خلال نافذة كبيرة.. السيارات تغدو وتروح مسرعة. وفجأة ظهر بالون سماوي كبير وسط السيارات. كان البالون.. يجتاز الشارع إلى الرصيف المقابل وهو يقفز.. كان رصيف المشاة من الخشب.. وثمة ماسح أحذية قادم من الطرف الآخر.. رجل في الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره حليق الشاربين إلى حدٍّ ما.. شعره طويل أشعث.. حافي القدمين. وقميصه ممزق بشكل مثير.. يبعد حوالي أربعين خطوة عن البالون.. عندما شاهد الرجل البالون وهو يتدحرج على الأرض.. رفع صندوقه المعلق على ظهره ووضعه على الأرض وأسرع نحو البالون وحمله بيده.. تلفت حوله إلى جميع الجهات.. ثم بدأ اللعب بالبالون.. كان يلعب به مثل كرة القدم.. يضربه بقدميه.. فيصطدم بالجدار ويعود إليه ثانية.. يقذفه نحو الأعلى.. ثم يقفز ويضربه برأسه.. شوط آخر.. وضربة رأس أخرى.. يحاور.. وإذا بالبالون ينفجر ويخمد. أخذه بيديه.. وعاد نحو صندوقه.. وحمله على ظهره.. وغادر المكان رويداً رويداً وهو يحاول نفخ البالون مرة ثانية.

كان الطبيب يضحك.. بشدة حتى يكاد يختنق والدموع تسيل من عينيه من كثرة الضحك.

سألته:

ـ لماذا تضحك؟

لم يجبني من فرط الضحك.. خشيتُ عليه من الاختناق والإغماء.

أنا الآخر كنت قد ضحكت من ذلك المنظر.. منظر الرجل الطويل العريض وهو يلعب بالبالون.. ولكن ليس مثله.. أنا الآخر بدأت بالضحك على ضحكته.. كلانا نضحك.. مرة منه ومرة مني..

هاه هاه.. هاه.. هاه هيه.. هاه هيه هيه هوه هوه...

الحادثة الثانية:

كان الطبيب يقول:

كنت طبيباً في أحد المشافي، وفي إحدى الليالي التي كنت فيها مناوباً .. نمت في وقت متأخر جداً.. أيقظوني من النوم باكراً مع الفجر:

ـ ماذا هناك؟

ـ لقد حضر ستة مرضى يا سيدي الطبيب.

لبست ثيابي وذهبت إلى المهجع.. ستة أشخاص يلبسون زياً موحداً.. زي الحراس.. كلهم يحاولون التقيؤ.. وأصبحوا في حالة مزرية من كثرة المحاولات وربما هم يحاولون ذلك.. منذ وقت طويل.. سألتهم:

ـ ما بكم؟

لم يستطع أي منهم الإجابة بسبب ضغط التقيؤ.. في البداية كان أغلب ظني أنهم قد تسمموا.. ربما أكلوا من صحن نحاسي علاه الصدأ الأحمر «الزنجار» وتسمموا.. ولكن الحالة التي هم فيها لا تشبه أعراض التسمم أبداً.. يحاولون التقيؤ.. ولكنهم لا يتقيؤون. أعطيتهم حقنة مسكنة.. وعندها غاب الجميع عن الوعي.. ناموا وأطالوا النوم.

لم يعرف أحد ماذا حصل لهؤلاء الحراس، سوى أن الشرطة أحضرتهم مع الفجر بإحدى عربات الإسعاف.

بعد نوم متواصل دام خمس عشرة ساعة استيقظ أحدهم من النوم.. وبعد قليل تبعه الباقون.

بدأ أحد الحراس يقص لنا ماذا حصل لهم:

ـ تعرفون يا سيدي الحديقة العامة المشهورة بـ (لون بارك) مقابل السرايا (بناء الحكومة) كنت أعمل هناك حارساً منذ ثلاثة أعوام.

في ليالي الصيف.. تعمل (لون بارك) عادة إلى ما بعد منتصف الليالي.. ثم للبارك روادها الخصوصيون.. الذين يعملون فيها.. يحرسون أموالهم. يعني العمل في الصيف أسهل بكثير من الشتاء.. لأن مدينة الملاهي لا تعمل في الشتاء.. وثمة أراجيح متنوعة في داخلها.. وألعاب أخرى كثيرة.. فيها كل شيء.. وكل هذه الأغراض باستلامي شخصياً.. لو تركناها.. لامتلأت بالأطفال والناس الذين ليس لهم منزل أو عمل.. الناس الذين لا تربطهم رابطة عائلية من أي جهة كانت.. الزعران والثرثارون.. لو تركناهم.. سيركبون المراجيح والأحصنة الطائرة إلى ما هناك من ألعاب أخرى كثيرة.. فهل أترك الأطفال الذين لا يحصى عددهم يخربون كل شيء؟

وإذا ما سقط أحدهم لا قدر الله.. فتلك حادثة فيها سؤال وجواب.. وتقودك إلى البلاء الأعظم.. يعني العمل عندي في الشتاء صعب جداً.. وخاصة أن منطقتي تقع مقابل منزل الوالي. ومخفر الشرطة قريب من مدينة الملاهي أيضاً. ولهذا السبب لا أستطيع التهرب من الخدمة كباقي الزملاء.

ومع سهولة عملي فالصيف فيه متعة وتسلية.

المصابيح تنير المكان وتحوله إلى نهار. والدواليب تدور.. والكل يركبون المراجيح يتسلون ويضحكون.. فتيات ونساء.. الكبار والصغار.. الصيف جميل ورائع. في بلدي لا يوجد ألعاب بهذا الشكل.. وأكثر ما يعجبني من الألعاب.. النملة الدوارة.. تدور دون توقف فيرر فيررر إنه شيء مسل جداً. أقول في نفسي لو أركبها مرة.. يا الله.. لو أركبها مرة! وكيف سأركبها؟ أنا حارس هذا المكان.. أرتدي اللباس الرسمي..ومن العيب أن أركب عليها وأنا في هذا العمر.. أذهب إلى جانب النملة الدوارة وأنتظر تحتها.. أنظر إليها وأقول ليتني أستطيع ركوبها مرة واحدة؟ لو بقيت

وحيداً سأركبها.. ثم إن الحراس الآخرين يملؤون مدينة الملاهي في ليالي الصيف أقول لهم: «ولك عمي.. ماذا تعملون هنا؟ اذهبوا إلى حاراتكم أو مناطقكم». يذهبون.. وبعد مضي قرابة نصف ساعة يعودون ثانية إلى مدينة الملاهي.. حارس اسمه عبد الله جاء معنا إلى المشفى.. وهو حارس في منطقة بعيدة جداً.. قال لنا في إحدى الليالي: «ولك شباب ما رأيكم لو نركب هذه النملة ولو لمرة واحدة؟».

كنت أعلم أنهم لا يحضرون إلى مدينة الملاهي إلا لهذه الغاية. لماذا يتركون غرفهم الدافئة.. في برد الشتاء القارس.. ويحضرون إلى هنا؟

قلت لعبد الله: «أنا المسؤول عن مدينة الملاهي.. ولك استحي على طولك.. هل أنت ولد صغير حتى تركب هذه النملة الدوّارة؟».

قفز أحمد مباشرة.. وهو أيضاً معنا في المشفى وقال: «ولك روحي لو ركبناها ماذا سيحصل يعني؟».. وصرخ الآخرون: «لو نركبها مرة ماذا يحصل يعني؟ والشيء الذي يعرفه الله.. لماذا نخفيه عن البشر.. أنا أكثرهم شوقاً لركوبها، ولكنني أخجل من نفسي.. وبما أنني حارسها.. فالواجب يقضي رفض الفكرة من أساسها.. هذا غير ممكن».

بدأ الحارس الثاني يقص ما جرى لهم:

بعد جهد طويل استطعنا إقناع الحارس عارف يا سيدي الطبيب «هيا لنركب.. ولكن إذا رآنا الشرطة الآخرون، معناه أننا ذهبنا في خبر كان». وقلت له: «نحن نركب.. وفي الوقت نفسه ننفخ بصفارتنا حتى يظن الشرطة أننا في نوبتنا أو في حراستنا». اقتنع عارف ولكنه كان يخشى انتشار شائعة تفيد بأن الحراس قد ركبوا النملة الدوارة، فقال وهو يرتجف خوفاً: «أيها الزملاء.. لنركب مرة واحدة فقط.. ولن أسمح لكم بالثانية أبداً» وأضاف: «أنا الآخر أريد أن اركبها.. ولكنني خائف لأنها إن دارت مرة فإنها تعلو في الجو كثيراً».. ركبنا النملة.. ولكنها لم تتحرك ولم تدر.

قال أحد زملائنا ويدعى يوسف: «لندفعها بأيدينا».. وبما أن عارف حارس المدينة كان قد شاهد كيفية تشغيلها قال لنا: «هذه الآلة تعمل بالكهرباء.. يجب أن يكون هناك مفتاح تشغيل في مكان ما.. كيف سأجده في هذه الظلمة.. غداً نهاراً أجد مكان مفتاح التشغيل ونركبها في الليل».

ثم أكمل حارس آخر سَرد الحادثة:

ـ في تلك الليلة.. كنت أعلم أن مدير الأمن سيقوم بجولة تفتيشية في وقت متأخر من الليل.. قبل الفجر بقليل..فقد وردت بعض الشكاوى بأن الحراس ينامون في فرن لتصنيع الكعك.. ولهذا السبب قرر مدير الأمن مراقبة الحراس.... كنا سنركب النملة باكراً ونذهب إلى أماكننا لأن الوقت مازال مبكراً جداً على حضور السيد المدير.. ونستطيع أن نلحق بالتفتيش..

قال عارف: «عرفت مكان وجود مفتاح التشغيل بمجرد أن نضغط عليه.. تبدأ الآلة بالحركة.. عندها نقفز عليها». في البداية صعدنا نحن.. وظل عارف في الأسفل لأنه سيقوم بتشغيل المفتاح.. وبمجرد أن ضغط عارف على الزر بدأنا بالدوران.. وأسرع عارف ليصعد معنا.. حاول القفز على إحدى العلب الحديدية.. ولكنه لم يستطع القفز والآلة تدور فأمسك بالعلبة التي كنت أركبها. ولو لم أسحبه من يده.. لاصطدم بالحديد وتدحرج على الأرض ثانية.. سحبته من يده وأجلسته قربي وبدأنا بالدوران.. إنه شيء ممتع بشكل لا تسألني عنه.. فالنملة تدور.. وفي كل دورة.. تزداد سرعتها.. ونحن نرتفع في الجو.

هل عرفت ما هي النملة: إنها آلة يتوسطها عمود من حديد..، وقد ربطت عليه قوارب صغيرة بالسلاسل الحديدية.. وإذا ما بدأت بالدوران.. تبدأ السلاسل بالارتفاع نحو الأعلى ونحن في القوارب.. ومع كل ارتفاع تبدأ بالدوران أكثر.

بدأ زملائي بالضحك والهرج.. ولك عيني منزل الوالي مقابلنا تماماً

والمخفر قريب جداً.. سيسمعوننا.. ولكنه من المستحيل أن لا تضحك.. ستضحك وتضحك... كنا نضحك وندور مثل المروحة.. ومع كل سرعة تزداد القوارب علواً وارتفاعاً.. وبقينا مدة من الوقت ندور هكذا في الفضاء.

أكمل حارس آخر القصة:

ـ وفيما نحن على هذه الحالة يا سيدي.. ازدادت سرعتنا بشكل مثير.. كنا على وشك أن نطير في الجو.. تركت الضحك من خوفي وتمسكت جيداً بالقارب.. تذكرت وصرخت بأعلى صوتي: «ولك عارف خفف من سرعة هذه الحقيرة وإلا سنطير في الهواء». وإذا بعارف يقول: «ولكن كيف تضعف سرعتها.. وما أدراني بذلك؟». توه.. أعطاك الله البلاء المناسب.. ستة حراس نطير في الجو مثل ستة نسور.. وقلت له: «ولك عارف.. إذا كنت لا تعرف تخفيض سرعتها أوقفها لننزل منها»، وإذا بعارف يصرخ في وجهي: «ولك حبيبي وكيف يوقف هذا الشيء؟» ؟.؟.؟.؟.؟.؟. الله لا يوفقك يا عارف.. بقينا في الجو.. نطير.. قلت لعارف: «ولك عارف اضغط على الزر في الأسفل ولكن لا سبيل لإيقافها».. بدأت عيناي بالزوغان.. ورأسي بالدوران.. وعبد الله من خلفي على القارب الذي يلي قاربي حيث قال: «هذه الآلة تعمل بالكهرباء أيها الزملاء».. بالتأكيد تعمل بالكهرباء. وما فائدة ذلك لتخليص أرواحنا.. الرجل فقد عقله من كثرة الدوران. قلت له: «وماذا يحصل يعني.. إذا ما عملت بالكهرباء؟» قال: «يعني ليس لنا إلا الخلاص.. لندعو الله حتى ينقطع التيار الإجمالي للمدينة.. فتتوقف هذه الآلة. وإلا سنظل ندور في الهواء حتى يوم القيامة». وقبل أن ينهي كلامه وإذ بشيء ما يقع على الأرض.. ولك آمان.. ما هذا؟ وإذا بزميلي الذي أمامي يتقيأ.. أنا الآخر كانت معدتي تأخذ وتعطي وبدأت أحس بغثيان فظيع من كثرة الدوران.. شيء ما يتضخم في أعماقي، لم أعد أتمالك نفسي.. تقيأت كل شيء.. راجع.. ثم راجع.. تقيأ ثم تقيأ.. دون

توقف.. نحن ندور في الهواء.. وإذا بأحدهم يصرخ.. لم أعرفه.. أحد زملائي كان يقول: «سامحوني يا شباب».. أما أنا فبدأت أتشهد على روحي.. هذا ليس كلاماً يا سيدي.. كنا على ارتفاع بقدر خمس مآذن.. بسرعة الريح.. الله لا يقطع حتى أرجل أعدائي عن الأرض.. ولا يمرر أية نسمة من تحت قدمه. إنها مصيبة لا تشبهها أية مصيبة.

كان أحدهم يتقيأ من جهة ومن جهة أخرى يشتم ويسب بكل ما جاء على رأس لسانه من شتائم ومسبات على مخترع وصانع هذه الآلة.. لم أعرفه.. وكان أحدهم يقول: «لو كانت تعمل بالبنزين لتوقفت عندما ينفذ وقودها».. خرجت أحشائي من بطني من كثرة المراجعة والتقيؤ. لم يبق شيء في داخلي.. حتى يخرج.. فقد أوشكت أمعائي ورئتي على الانحلال كلياً.

قال عارف: «لنصرخ دفعة واحدة.. النجدة».. انظر قليل العقل هذا.. ولك عيني.. بيت الوالي مقابلنا تماماً.. والمخفر قربنا.. أمعقول هذا الكلام؟ وهل يجوز أن نصرخ بالنجدة؟ ولكن مهما حاولنا تهدئته وإسكاته.. فقد ظل يصرخ: «النجدة ة ة ة».. وانقطع صوته.. ربما غاب عن الوعي وطُرح في قاع القارب.. بعده بدأ يوسف بإرسال إشاراته بالصفارة.. تدحرج هو الآخر داخل القارب. هرعت جميع عناصر الشرطة من المخفر بسرعة البرق. ومع أنهم جاءوا إلى مدينة الملاهي.. فلم يشاهدونا لأننا كنا في الهواء.. نظروا في كل مكان.. صفروا.. وغادروا المكان.. لا أدري كم بقينا نطير في الهواء.. كنت قد غبت عن الوعي.. وعندما فتحت عيني وجدت نفسي في المشفى.. ولا أزال أشعر كأنني أطير في الهواء حتى الآن.

قاطعه الطبيب قائلاً:

في تلك الليلة كان مدير الأمن قد خرج للتفتيش. وعندما لم يجد أحداً من الحراس في منطقته.. ركب سيارته عائداً.. كانت الشمس على

وشك أن تشرق.. ثمة أصوات غريبة داعبت أذنه.. أية أصوات.. ليست نعيق غربان.. ولا صداح هدهد.. فأي من أنواع الطيور التي تصدر عنها هذه الأصوات.

نظر بدقة إلى القلابة.. ثمة رؤوس وأجساد تطير.. وأصوات غريبة تصدر منها.. بعضهم رأسه نحو الأرض.. وبعضهم يديه وأرجله.

إيبولوج:

جئت إلى المنزل.. لاحظت حزناً شديداً على وجوه أفراد العائلة:

ـ هل تعلم.. ماذا حدث؟

ـ شو صار؟

ـ يقولون أن طيارة ورقية قد تعلقت بأسلاك الكهرباء.. فصعد غلام إلى إحدى الأشجار القريبة ومنها تسلق عمود الكهرباء.

قلت لهم: اسكتوا.

نظرت من النافذة.. فشاهدت طيارة ورقية وقد تعلق ذنبها بالأسلاك.. وتهتز في الهواء..

كورو:

عندما كنت طفلاً.. كنت أقول في نفسي: عندما أكبر سيكون عندي طيارة ورقية كبيرة.

طيارات كثيرة وكبيرة جداً.. أكبر من الدنيايايايا..

النهاية:

في بلدي لا يستطيع العيش سوى الأغنياء...

يللي لي.. يلللي يلي.. يللللي ي ي ي.. ييلللللي ي ي ي.

○ ○ ○

قصة غير ساخرة

حب تولسويو (Tulsuyu)

الحبيب: V.D.

عندما استلمتَ برقيتي.. وقرأتَ فيها «أنا أحبك يا تولسويو» بالتأكيد.. احترتَ في أمرك.. وتساءلتَ في نفسك.. ما معنى هذا الكلام..؟ ومن تولسويو هذا..؟

والحقيقة.. هذا العمل لن يصدر عن إنسان عقله في رأسه.

ولكن.. عندما كتبتُ البرقية.. لا أستطيع أن أقول لك أن عقلي كان في رأسي. في ذلك اليوم كنت مثل الإنسان الذي ينام وهو يمشي.. أرسلت لك البرقية خارجاً عن إرادتي.

بقيت لوحدي مدة أسبوع وسط هذه الدوامة.. أحس بأنني في دنيا ثانية، وتزداد وحشة الإنسان حدة في مثل هذه المدينة الغريبة. فالهواء المحيط بي أصبح مثل شبكة.. أتحرك بين خيطانها بصعوبة بالغة.. وضمن هذا الضياع الروحي.. لم أجد سوى الخمر والشراب الذي ينسيني همومي.. ولم أكن أفكر بغير ذلك. لم أحبذ الذهاب إلى المطاعم والملاهي الفخمة والغالية القريبة من فندقي.. لأنني لم أكن أرغب برؤية رجال منتفخي البطون.. وأغطية طاولات فخمة ومزركشة، وأحاديث منمقة. بل كنت أرغب أن ألقي بنفسي بين أناس ذابلين وأغطية طاولات ذابلة، وأحاديث ذابلة.

دخلت عدة مرات بين الأزقة الداخلية.. فتاهت نفسي في زحمة تلك

المدينة الكبيرة. أحببت أن أضيع نفسي بين السيول البشرية الجارفة.. في مثل هذه المدن الغريبة المزدحمة، وفي جميع الأحوال كنت أستطيع العودة إلى الفندق بأية سيارة أجرة.

وجدت عدة محلات مناسبة لشرب الخمر وأحسست بالراحة فيها.. دخلت بعضاً منها.. ونظرت إلى بعضها، إلى جوها الضبابي الذي يلفه دخان السجائر.. من خلال النافذة.. لمحت مكاناً وطاولة منعزلين.. لأجلس وحيداً.. طاولة وحيدة تنتظر زائرها.. أعجبتني كثيراً.. رائحة الخمر كانت تختلط مع دمدمة الأحاديث.. ولم يكن هناك ما يؤنس غربتي ووحشتي. سوى ثلاث نساء يخدمن المحل. جاءت إحداهن وكانت سمراء من سمراوات البحر المتوسط.. سألتني.. ماذا تريد! لقد بدر من هذه السمراء شيء جميل.. أحضرت قبل كل شيء.. قرنفلة حمراء ضمن مزهرية صغيرة رائعة.. وضعتها أمامي.. شكرتها..

هذه القرنفلة.. لم تكن قرنفلة عادية كبيرة.. ولكنها قرنفلة ذات رائحة محروقة.. شممتها وكأنني أريد سحب كل أريجها إلى أعماقي دفعة واحدة. شربت.. وبدأت أعود إلى نفسي رويداً رويداً.. كان وجهي معاكساً للباب.. ولم أره ينفتح لكنني رأيت الشخص الداخل منه.. شخص يقاربني في العمر.. وقف يفتش عن طاولة فارغة ليجلس عليها.. اقترب مني وقال:

- هل أستطيع أن أجلس على طاولتك؟

قلت له دون مواربة:

- بكل تأكيد.. تفضل.

لم أكن أرغب أن أجزئ وحدتي.. وخاصة مع مثل هذا الرجل.. أحسست بغيظ كبير.. شكرني وجلس مقابلي.. وطلب من تلك الفتاة السمراء،.. مثل طلبي.. جبنة مختلفة وسلطة وشراباً أبيض.

وبعد أن فعل مثلي.. شم القرنفلة بقوة وقال:

ـ أنا أحب هذه القرنفلة الصغيرة أكثر من الأخريات اللواتي يغلب فيهن الشكل على الرائحة.. لهن من أشكال الفخامة والكبرياء الشيء الكثير.. ما عدا الرائحة.. أما هذه القرنفلة الصغيرة، فهي شبيهة بالأناس المتواضعين.. ألا تحس برائحتها المحروقة اللذيذة.

رفع القدح الذي ملأه نحو الأعلى وقال:

ـ على شرفك.

ضربت قدحي بقدحه وقلت:

ـ على شرفك.

وبدأ الحوار بيننا.. فقال إنه غريب عن هذه المدينة وموجود فيها منذ أسبوع.

وأنا أيضاً قلت نفس الكلام.

هذه المرة سألته عن عمله.. كي يكون الحوار بيننا جدياً. قال:

ـ أحب تولسويو..

ربما فهم سؤالي خطأً..

ـ لقد سألتك عن عملك؟

ـ أنا الآخر قلت لك أحب تولسويو.. أنا عملي متعلق بحب تولسويو.

عندما أدرك عدم فهمي لما يقول وجد أنه من الضروري أن يشرح ذلك:

ـ هل هناك شيء أهم من أن يحب الإنسان؟ حتى هذا التاريخ أحببت تولسويو.. وسأظل أحبها حتى أموت.. السعادة الكبرى أن يقوم الإنسان بعمل يحبه.. أما أكثرية الناس فإنهم يقومون بأفعال وأعمال لا يحبونها.

عندما سألته عن عمله.. كان قصدي معرفة كيفية عيشه.

ـ شو يعني أن يحب الإنسان عمله..؟.. أجابني.

ـ يجب على الإنسان أن يفكر كل يوم أربعاً وعشرين ساعة من أصل يوم كامل في العمل الذي يحبه ويعمل به.

كنا قد انتهينا من شرابنا.. أحضرنا زجاجة أخرى.

شخص مثله وفي عمره.. من يدري كيف هي حبيبته أو الشيء الذي يحبه.

قلت:

ـ هل أستطيع أن أسألك عن عمرك؟

ـ وما علاقة عمري بالشيء أو الشخص الذي أحبه.. أنت الآخر تعيرني على ذلك.. أنا في السبعين من عمري.

ـ إذن كلانا في عمر واحد.

ـ طبعاً.. وتريد أن تعرف تولسويو.. مثل الآخرين أليس كذلك؟ لأن الجميع يتساءلون مثلك عن.. حبيبة شخص في السبعين من عمره.

ـ الحقيقة.. صار عندي فضول بشكل مثير حول هذه المرأة التي تحبها بهذا الشكل.

ضربنا أقداحنا ثانية ببعضها وشربنا على شرفنا.

ـ أول ما رأيت تولسويو.. حادثة بين الحقيقة والخيال... أتذكرها من كلمات والدي.. وأنا في الرابعة أو الخامسة من عمري: في إحدى الأمسيات.. كنا جالسين مع والدي أمام دكان أحد أصدقائه.. وكان الدكان في شارع يتدرج بالصعود، رصيفه مهدَّم ومحفور.... وإذا بفتاة تمر أمامنا... إنها في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها.. شعرها طويل. كانت فتاة ينطبق عليها هذا الوصف.. بدرت مني بضع كلمات

وهي «أنا سأتزوج من هذه الفتاة».. هذه الحادثة ضخمها والدي وفصلها في أحاديثه.. حتى أن الحادثة صارت حقيقية أمامي.. وأصبحت الفتاة موجودة في خاطري كحقيقة ثابتة..

وصارت الحادثة عندي وكأنني عشتها يقيناً وبكل جوارحي من كثرة ما رددها أبي أمامي. و(تولسويو) هي تلك الفتاة التي رأيتها آنذاك.

ـ إذن.. عمرها قد تجاوز الثمانين الآن.

ـ لماذا؟

ـ بما أنك كنت في الرابعة أو الخامسة من عمرك وهي في الرابعة أو الخامسة عشرة من عمرها.

ـ ولكن تولسويو.. لا تكبر ولا تعمر.

ـ إذن رأيتها فيما بعد.

ـ على الدوام أبحث عنها.. وهل تظن أن وجودي في هذه المدينة لسبب آخر..؟ إنني أبحث عنها.. تعيش في مكان ما من هذه الدنيا.. في عنوان لا أعرفه. امرأة تنتظرني.. ولا أعرفها حتى الآن.. وعندي يقين أنني سأجدها.. أبحث عنها على الدوام في كل مكان..

ـ يعني لم ترها بعد ذلك اليوم أبداً؟

ـ رأيتها.. وكنت في الثلاثين من عمري.. عندما خرجت أبحث عنها.. وأثناء مروري في العاصمة، تلك المدينة الكبيرة. رأيتها بينما كنت أنزل من سلالم المترو.. نعم رأيتها.. تولسويو.. وهي تصعد السلم الصاعد من جانبي.. كان عمرها لا يتجاوز العشرين على أبعد تقدير.. وقد قصت شعرها الكستنائي كثيراً.. مرت بسرعة مستخدمة السلالم المتحركة..

كدت أناديها باسمها.. تولسويو.. ولكن السلم الذي كنت عليه تحرك بسرعة نحو الأسفل.

- ألم ترها غير تلك المرة؟

- رأيتها عدة مرات أخرى.. كنت في الأربعين من عمري.. حين رأيتها في تلك المدينة الواقعة على ضفة نهر (طونا) الألب.. خلال زيارتي الأولى. وبينما كنت أغادر القطار.. وسط المحطة المزدحمة جداً.. الصاعدون والنازلون من القطار يسيرون باضطراب.. وفي تلك المعمعة اصطدمت بإحداهن. رفعت رأسي ونظرت إليها.. إنها هي.. فتاة شقراء.. عيونها زرقاء وكبيرة إنها تولسويو.. التي لا يتجاوز عمرها خمسة وعشرين عاماً على أكثر تقدير. بقينا لفترة ننظر في عيون بعضنا.. عندما اصطدمت بي بقوة، سقطت بعض العلب والأغراض من يدها.. وضعت حقيبتي على الأرض.. وناولتها أغراضها وقلت لها: «المعذرة». هي الأخرى شكرتني. ثم أمسكها الرجل الذي كان معها من يدها وأصعدهاا إلى القطار.

بعد هذه المقابلة بستة أعوام تقريباً.. رأيتها في إحدى مدن آسيا في الحافلة. وسافرنا معاً في نفس الحافلة مسافة أربعة مواقف.

سألته:

- ألم تتحدثا..؟

- وكيف سأتحدث معها.. وأنا لا أعرف لسان حالها..؟.. ومرة رأيتها في إحدى مدن دول الشمال الصغيرة.. كنا في اجتماع عالمي. وجلست معها فترة من الزمن.. على نفس الطاولة وجهاً لوجه.. وقد جلس بجانبها زنجي اعتقدته زوجها.

- هل كان زوجها زنجياً..؟

- نعم.. حتى تولسويو كانت زنجية.. زنجية جميلة فوق العادة.

- ألم تتحدثا أيضاً؟

KMH

ـ سألتني إن كنت أملك ورقة زائدة من دائرة النشر الثالثة. لم يكن معي زيادة.. ولكنني أعطيتها ورقتي.. فشكرتني. الأعوام تمر وأنا على الدوام أبحث عن تولسويو.

ـ ولكنك تجدها على الدوام.

ـ أجدها.. ولكن كيف..؟ للحظة واحدة. كلمح البصر ليس إلا.. أراها تلمع وتنطفي في نظري.. أضيعها بمجرد أن أجدها.. هذه ليست مقابلة.. لكي أقابلها حقيقة.. طفت الكرة الأرضية لعدة مرات. فرأيتها في إحدى قصور مدن البلقان.. لم يكن عمرها قد جاوز الثلاثين. أما أنا فكنت فوق الستين.. كانت تجلس بين رجلين على السلمِ المرمري.. تحمل بيدها كأس شراب فيه سائل أحمر اللون.. وكلما ضحكتْ من حديث الرجلين الواقفين جانبها.. كان الشراب الأحمر يهتز في القدح. ثم إن شعرها أحمر.. وعيناها سوداوان.

رأيتها قبل خمس سنوات في مكان لم أتوقعه أبداً.. وهذه هي الحالة العامة كما ترى، فلا أراها إلا في أماكن وأزمنة غير مناسبة ولا متوقعة. دخلت مرة أحد البنوك في الناحية.. وعندما نظرت إلى مكان ما.. رأيتها تتحدث مع أحد موظفي البنك.. كانت عيناها خضراوتين.. شعرها مسرّح على شكل كعكة مستديرة.. وكان أن غادرت البنك مباشرة بالسيارة الواقفة أمام الباب.

آخر مرة رأيتها كانت في العام الماضي.. في أحد فنادق مدينة من مدن البحر الأبيض المتوسط.. ربما تجاوزت العشرين من عمرها غصن رفيع جداً.. أما أنا فكنت جالساً أمام غرفتي.. أقرأ كتاباً فسألتني: «عفواً، كم الساعة الآن؟». عندما رفعت رأسي وإذا بي وجهاً لوجه أمام تولسويو.. وإلى جانبها شاب فتي.. كانا قد خرجا من البحر لتوهما.. وقطرات الماء ما تزال على جسديهما كحبات من اللؤلؤ.. ذكرت لها الساعة..

شكرتني. أحسست أن قلبي سيتوقف فرحاً.. ولم أرها بعد ذلك في الفندق.

كان شرابنا قد انتهى أيضاً. سألته:

ـ هل نشرب زجاجة أخرى؟

قال:

ـ لنشرب.

أحضرت الفتاة السمراء زجاجة أخرى.

ـ كل من أقص له حكاية تولسوي.. يسخر مني.. قائلاً تولسوي هنا أو هناك.. يدفعونني للذهاب إلى هنا أو هناك.. يضعونني في حيز المجانين ويحتقرونني.. وأول إنسان أقص له قصة تولسوي.. لا يسخر مني هو أنت.

سألته:

ـ وما سبب حبك لتولسوي بهذه الدرجة؟

قال:

ـ الأسباب كثيرة.. كلما أبحث عنها ولا أجدها.. وكلما أجدها ولا أقابلها.. يزداد هيامي وتعلقي بتولسوي أكثر.. إنه إدمان..يحرقني مع مرور كل يوم وساعة.. أعماقي عبارة عن جمرات ليس إلا.. أعرف أنني سأحترق وأكون رماداً يذرى قبل أن أقابل تولسوي.. وكم هي طيبة تولسوي.. آه لو تعرف.. لماذا هي طيبة بهذا المقدار؟ هل تعرف..؟ لأنها لم تسبب لي مشاكل مثل الأخريات اللواتي نمت معهن ظناً مني أنهن تولسوي.

لم تطلب في علاقتها معي أية مصلحة.. ولم تخدعني، ولم تخدع نفسها عندما كانت تقول أنا أحبك.. ولم تكن ذات وجهين أبداً. ولم

يكن لها حساب سري خاص، لأنه لم يتوفر لنا وقت أو زمن لنتقاسم فيه هذه الأشياء.. إن بقائي حياً هو لأن تولسويو تظل تحيا معي كذكرى من الدرجة الثالثة.. أعيشها مدة لمح البرق ليس إلا. ومن أجل هذا أنا أحبها. وسأظل أحبها على الدوام.. وليس لي عمل سوى حب تولسوي، الذي يبدو بعيد المنال ولن يتحقق.

قلت:

ـ عفواً.. ولكن كيف تعيش..؟ هل لديك مورد تنفق منه على نفسك؟

قال:

ـ لا أملك شيئاً على الإطلاق.

ـ إذن كيف تعيش؟

ـ أعمل أشياء بحيث لا تمنعني عن البحث عن تولسوي وحبها والتفكير بها حتى ولو للحظة واحدة. حبي لتولسوي مهم جداً ولكنه غير كاف على الإطلاق. يجب أن أعلن حبي لتولسوي لكل الدنيا وعلى الملأ.. يجب أن يعرف الجميع أنني أحب تولسوي. وإذا لم أستطع أن أفهمهم ذلك فلا معنى لحياتي ووجودي.. وكل إنسان مُرغم على إثبات وجوده بسلوكه طريقاً يحاول الوصول من خلاله إلى هدفه، وإلا تكون الحياة لا معنى لها.

لم أفهم شيئاً مما يقوله.. سألته.. كي يوضح موقفه أكثر:

ـ ماذا تعني بكلامك؟

ـ الإنسان يعيش في هذه الدنيا.. ولا يكفي عيشه لوحده.. يجب أن يعرف الجميع أنه يعيش.. لأنه لا يعيش لوحده. يجب أن يشعر الآخرون بوجوده وحياته.. وكلما زاد عدد الذين يعرفونك.. كلما زاد وجودك في

هذه الدنيا.. كل واحد يعيش لسبب معين.. وأسباب وجودهم مختلفة.. لقد وُجدت حياتي كي أحب تولسوي.. وحبي لها يجب أن يعرفه الجميع.. حتى أستطيع أن أكوِّن لذاتي وجوداً في هذه الدنيا.

- وكيف تفعل ذلك؟

- بإفهام الجميع هذا الشيء مثلاً.. شرحت لك الأمر.. صار عندك فكرة عني.. أنني أحب تولسوي.. ومن أجل ذلك يعني أنا موجود بالنسبة لك، وتعرف أنني أعيش في هذه الدنيا.. أحاول شرح ذلك للجميع.. في الماضي كنت أصعد الجبال العالية.. وأجوب البراري والقفار.. وأصرخ بأعلى صوتي: «أنا أحبك يا تولسوي».. كنت أسمع صدى صوتي.. وبما أن الصراخ بنفس الوتيرة ليس جميلاً.. بدأت أغير من أماكن الكلمات والحروف.. أثناء صراخي.. بعضها أضخمه، والبعض الآخر أنعمه.. فيأتي الصدى مغايراً في كل مرة.

وبدأ بالقول.. كما في الغابات والبراري.. ولكن في هذه المرة دون أن يسمعها حتى الجالسون على الطاولات الأخرى:

- «تولسوي أحبك

أحبك يا تولسوي

أحبك يا تولسوي

تولسوي أحبك

أنا أحبك يا تولسوي»

سأعلن حبي للدنيا كلها.. إنني أحب تولسوي.. وعندما أُسمِع صوتي للجميع.. سيشعرون بوجودي.. ومن أجل ذلك.. بدأت أصرخ في الطرق.. وأدخل في زحمة الناس.. وكأنني أغني: «أنا أحبك يا تولسوي».

ـ هل صوتُك جميل؟

ـ أبداً.. وفوق ذلك كله صوتي قبيح جداً.. وأذناي ليستا حساستين لتلقي هذا الشيء.. وأنت؟

ـ أنا أيضاً مثلك.

ـ بما أن أذني ليست حساسة.. وصوتي قبيح.. أردد ذلك في كل مرة بنغم مناقض للصرخة الأولى.. أغير مخارج الحروف والكلمات.. وهكذا أطوف الدنيا.. وكلما أمر بدائرة البريد أرسل برقية إلي تولسوي من كل مكان في هذا العالم «أنا أحبك يا تولسوي».. بعض الأحيان أرسل خمس أو ست برقيات في اليوم الواحد.. حسب نقودي.

ـ إذن تعرف عنوان تولسوي..

ـ لا.. ومن أين لي أن أعرف ذلك.. أجد من عندي عنواناً وفق مزاجي وأرسل البرقية.

ـ وعندما لا يجدون العنوان.. تعود البرقية لك ثانية.

ـ أعتقد ذلك.. ولكن ليس لي.. لأن عنواني مزيف. في أكثر الأحيان.. أبدِّل أماكن إرسالي للبرقيات.. لأنهم صاروا يعرفونني.. ويسخرون مني.. ولهذا السبب أذهب إلى مكاتب بريد أخرى في المدينة الواحدة. ليسخروا مني ما بدا لهم.. ولكنهم توصلوا إلى حقيقة واحدة.. وهي حبي لتولسوي.. وبقدر ما يعرف الجميع حبي لها.. أزداد وجوداً في هذه الحياة.

كانت الطاولات قد بدأت تخلو من الزبائن.. أما نحن فتحركنا بعد منتصف الليل. كنا نسير بصعوبة.. ولكننا لم نكن سكارى بشكل لا نفهم حديث بعضنا.. ولا نعرف عن حديثنا شيئاً.

قال:

ـ منذ أربعة أيام.. وأنا أقصد (ساحة سراي الثقافة) بعد ظهر كل يوم.. تعال إلى هناك.

سألته:

ـ وماذا تفعل هناك؟

ـ أصرخ هناك بأعلى صوتي معلناً حبي لتولسوي «أنا أحبك يا تولسوي» حتى يبح صوتي من الصراخ.

ألم تسألني قبل قليل ما العمل الذي تقوم به..؟ هذا هو العمل الذي أقوم به.. ولأشرح لك كيف بدأت بهذا العمل.. كنت قد أرسلت آخر برقية في ذلك اليوم.. كانت النقود قد انتهت معي.. نظرت في كل الاتجاهات.. وتجولت هنا وهناك حتى وصلت إلى ساحة قصر الثقافة.. هل رأيت.. كنت أعرف كل شيء.. إنه مكان مسلٍّ جداً.. كل واحد يعرض فنه وصنعته ومعرفته في ذلك المكان.. بعضهم يدرب كلبه على الألعاب البهلوانية.. كانوا يعطون الدروس والتدريب لثلاثة أو أربعة كلاب صغيرة.. وبعضهم يعرض أو يقدم حفلة موسيقية.. بعدة آلات يعزفها لوحده.. وهناك ثنائيان أيضاً.. أحدهما يعزف والآخر يغني.. وبعضهم يرسم صورة كاريكاتيرية للشخص الذي يطلب منه ذلك.. ورجل يبلع سيفاً ويخرجه.. وشخص ينام فوق مجموعة من الزجاج المتكسر ويحمل فوق جسده خمسة أشخاص دفعة واحدة.. وثمة عجوز يرسم لوحات بالطباشير الملونة على الأرض.. ورجل يقدم عرضاً لخمسة قرود أو سعادين.. يقومون بألعاب جمبازية.. وينالون التصفيق الحاد. وأحدهم يقدم عرضاً بعلبة على أنها لعبة جميلة. وأناس آخرون كثيرون.. والمتفرجون.. ملتفون حولهم يشاهدون العروض. والعرض الجيد يستقطب جمهوراً أكثر. وعندما ينتهي العرض.. يلقي بعض الناس النقود الصغيرة داخل علبة مقدِّم العرض.

إنه مكان فوق العادة.. وخاصة بالنسبة لي. أجمل مكان لإعلان حبي لتولسوي. وقفت في زاوية.. وبدأت أصرخ عن مدى حبي.. وكيفية حبي لتولسوي.. ما كنت أتوقع أبداً أنهم سيجتمعون حولي أيضاً.. جمهرة غفيرة اجتمعت من حولي.. بعضهم يسخر مني.. والبعض الآخر يصرخ في وجهي.. وبعضهم يستمع إلي بلهفة.. صرخت بأعلى صوتي وداومت على الصراخ.. حتى نالني التعب والإرهاق.. فأمطروني بالنقود.. حيث.. توجهت مباشرة إلى مكتب البريد وأرسلت برقية إلى تولسوي.. بعد ذلك صرت أقصد تلك الساحة بعد ظهر كل يوم.. إذا أردت احضر أنت أيضاً.

أتذكر أننا ركبنا السيارة معاً، وأنني أعطيت للسائق اسم الفندق الذي أنزل فيه.. في ذلك اليوم ذهبت إلى ساحة قصر الثقافة. والحقيقة.. إنه مكان مسلٍ جداً. كما ذكره لي الرجل.. شاهدت الذي يخرج النار من فمه.. والذي يترك حماماته من القفص الكبير حيث تقوم الحمامات بعروض رائعة في الهواء.. والذي يرسم صورة خلال خمس دقائق فقط.. طفت هنا وهناك.. حتى سمعت صوته.. كان واقفاً في طرف الساحة.. يصرخ بأعلى صوته «أنا احبك يا تولسوي» لو لم أسمع صوته.. ما كنت قد وجدته.. أناس كثيرون تجمعوا حوله.. دخلت بينهم.. ولا أعتقد أنه شاهدني بين الجمهور.. لأن عينيه كانتا مغلقتين عندما اقتربت منه. كلماته لم تكن على شكل أغنية.. وما كانت تشبه الغناء أبداً.. إنها صراخ وعويل ليس إلا.. الحقيقة كان صوته قبيحاً جداً أو رديئاً. ولكنه كان يصرخ مثل إنسان متألم متوجع.. حتى أنه كان يئن بعض الأحيان.. في الجمهرة نساء ورجال.. وصغار وكبار.. كلهم يستمعون إليه.. كان البعض قد أحضر أشرطة تسجيل.. لتسجيل صوته.. وكما قال شخصياً.. ثمة أناس يسخرون منه.. ويصرخون في وجهه.. حتى أن البعض كان يرميه بالحجارة.. والآخرون يمنعونهم.

تحسرت كثيراً لأنني لم أسجل صوته على شريط.. ولكنني كنت

سأحضر في اليوم التالي.. آلة تسجيل لأقوم بذلك.. ثمة أشخاص كانوا يسجلون صوته.. وعملت عين العقل والصواب حين فعلت ذلك أيضاً. وهذا ما سجلته:

«هاي ي ي.. اسمعوا حاجي بقى.. اسمعوني.. واعلموا إنني أحب تولسوي .. لا أريد أن يظل شخص واحد لا يعرف ذلك. ليسمعه الصم.. لتسمعه النساء المرضعات اللواتي أثداؤهن مليئة بالحليب.. لتسمعه الدماء الجارية السائلة في شرايين الأطفال الذين ولدوا لتوهم.. وليسمعه الدم المغلي في عروق الذين يقومون بالجنس. لتسمعه أصابع المحبين التي تلامس بعضها لأول مرة. لتسمعه الشفاه التي تقبل أول مرة.. وليعلم التاريخ والزمان والجغرافيا بأنني أحب تولسوي».

في كل صرخة ثمة كلمات لم تكتمل، لم تولد. بعد.. مليئة بالآلام.. كأنها آلام إنسان المغارة الأول.. الإنسان الذي كان قبل مائة ألف عام وبعد مائة ألف عام.. هكذا كانت صرخاته.. الأكثرية من الحضور ما كانت تعرف لغته.. ولكنهم كانوا يصغون إليه بدقة متناهية.. بعض الأحيان تصدر عنه أصوات تُخرّش الآذان.. وتكوي شغاف القلب.. وأحياناً أخرى تصدر منه الأصوات همساً كأنها بكاء.. محركاً شفتيه وهو يقول: «أنا أحبك يا تولسوي».

فكرت كثيراً.. لماذا يهتم الناس بهذه الأصوات التقليدية القديمة..؟ رجالاً كانوا أم نساء.. شباباً أم عجائزاً.. ربما كانوا يريدون أن يصرخوا هم أيضاً بملء إرادتهم «أنا أحبك يا تولسوي» ولا يقدرون على ذلك.. ولهذا يقفون ويستمعون إلى رجل يصرخ عنه وعنهم بكل عذوبة.. وربما كان هذا الشخص يعلن حبه لتولسوي وهو يئن ويبكي ويصرخ عوضاً عن الجميع.

تقوقع على الأرض.. وغمرت النقود جسده المنهك.. وتفرّق

الحضور.. وغادروا المكان.. ظل على هذه الحال بعض الوقت. فكرت.. هل هذه لعبة يقوم بها.. وهل كان يقوم بلعبة مثل الجميع في هذه الساحة؟

بعد قليل تحرك من مكانه.. شاهدني.. سلمنا على بعضنا. جمع النقود عن الأرض وقال:

ـ هيا لنذهب إلى مركز البريد لنرسل برقية لتولسوي.

سألته إذا كان سيعيد نفس العرض.. قال:

ـ لا.. لأن العرض لا يكون إلا لمرة واحدة.

قلت:

ـ هل تردد نفس الكلمات كل يوم؟

ـ لا.. لأنني لست ممثلاً.. لأن الحياة تتغير في كل لحظة.. الصوت والكلمة تتغيران وفق الزمان.

ذهبنا إلى مكتب البريد.. صعد السلالم بقوة وعزيمة لا يتوقعها الإنسان من شخص في مثل عمره.. بحث عن مكان فارغ في إحدى الطاولات المنتشرة في الصالون الكبير.. ليكتب برقيته.

كنت قريباً منه، قرأت: «أنا أحبك يا تولسوي».. كان يكتب العنوان المزيف. رأيت أحد الموظفين يتحدث مع صاحبه ويشيران إلى الرجل.. كانا يسخران منه. إذن كانا يعرفانه. ولكنهما لم يرفضا برقيته ولم يعارضاه.

خرجنا من مكتب البريد.. قال:

ـ سأذهب إلى مكتب بريد آخر.. وأرسل برقية إلى تولسوي وأغادر هذه المدينة.

قلت:

- إلى أين ستذهب؟

قال:

- لست أدري.. سأذهب إلى أي مكان آمل أن أجد فيه تولسوي.

تصافحنا.. وذهب كل واحد منا في حال سبيله.. بقيت مدة من الوقت أنظر إليه من الخلف.. وبعد أن ابتعد مسافة لا بأس بها.. عاد هو الآخر ونظر إلي.. كأنه يعرف أنني أنظر إليه.. لوَّح بيده.. ولوحت له بيدي بالمقابل.

ثم دخلت مكتب البريد.. أخذت ورقة وسجلت فيها «أنا أحبك يا تولسوي».. إلى من أرسل هذه البرقية يا ترى؟؟ الحبيب V.D... تذكرتُكَ على الفور.. كتبت عنوانَكَ وأعطيت الورقة للموظف.

«أنا أحبك يا تولسوي»

ربما لم تفهم شيئاً من البرقية.. وربما احترت في أمري كثيراً.

○ ○ ○

البحر تحت الأقدام

استانبول مدينة يحيط بها البحر من ثلاث جهات.. على وجه التقريب يتداخل بحرها ببرها مثل الأذرع. وفي هذه الحال.. فإن الوصول إلى البحر في استانبول هذه الأيام أصعب بكثير من الدخول إلى الجنة في الآخرة. لقد سيطرت قلة من الأثرياء على شواطئها،.. ولكن شراء البحر لا يمكن أن يسعه العقل أبداً... لندع إلى الله أن يمنع الذين اشتروا البحر أن لا يشتروا الهواء الذي نتنفسه لأنه لا فرق بين البحر والهواء.. والشكر لله.. لأنهم لم يشتروا الهواء ويتركونا في حالة اختناق كامل.

أنظر إلى هذا البحر وأتأمل امتداده على مدى شاطئ استانبول الطويل.. من (قافقلر) إلى (جكمجة).. ومن (شيلي) إلى (بنديك).. انظر إلى هذا البحر الذي لم يبق فيه شبر واحد يضع المرء فيه أقدامه مجاناً.. كيف اشتروه.. وجعلوه هكذا..

بعد لف ودوران دام ثمان سنوات في الأناضول.. عدنا إلى استانبول.. فتملكت العائلة كلها فرحة عارمة.. أما الحادثة التي أرويها لكم اليوم حدثت قبل عشر سنوات من الآن.. جئنا إلى استانبول، على الأقل لنتذوق طعامها.. لنستأجر منزلاً على الشاطئ.. هكذا أمَّلنا أنفسنا. وكان من رابع المستحيلات أن تجد بيتاً قريباً من الشاطئ.. فقلنا بيتاً قريباً من الشاطئ على الأقل.. غير ممكن أيضاً.. آمان.. ليكن مكاناً نرى من خلاله البحر على الأقل.. ننظر إلى البحر من بعيد وتنفتح قلوبنا وعيوننا.. لم نستطع أن ننظر من بعيد أيضاً.. وفيما نحن نبحث هنا وهناك.. وجدنا

بناية نستطيع أن نرى منها البحر في (جيهانغير) قال لنا صاحب البناية قبل أن نشاهد الشقة:

ـ مائتا ليرة.

ـ آمان.

ـ هذا زمان الآمان.. إذا أردتم غرفتين وصالون..

ـ شقة صغيرة.. وبهذا المبلغ.

ولكنك ترى البحر يا سيدي.

من أجل مشاهدة البحر دفعنا مائتي ليرة من مال ذاك الزمان رضينا.. ورضي الرجل أن يرينا الشقة. كانت البناية قد شيدت في الناحية الأكثر «عمودية» عندما دخلنا من باب البناية..

هبطنا إلى طابق تحت الأرض. لم يكن هذا نهاية المطاف فلما نزلنا إلى الأسفل.. كان درج آخر نحو الأسفل.. قلت في نفسي: ربما سنشاهد البحر من الأسفل إلى الأعلى. نزلنا طابقين.. تحت الأرض.. المكان مظلم تماماً.. أشعل صاحب البيت قداحته حتى وجد مفتاح الكهرباء.. ولما أداره.. وقال:

ـ تووه.. الكهرباء مقطوعة.

على نور قداحته فتح الباب.. عندما دخلنا كان البيت مظلماً تقريباً.. لأن البناء قد شيد على الجبل.. كان قسم منه تحت الأرض، والقسم الثاني فوقه.

سألت صاحب البيت:

ـ قلتَ لنا أنه في الطابق الثاني.

قال:

ـ نعم.. يوجد طابقان آخران تحت الأرض.

للبيت ثلاث نوافذ يرى من خلالها الخارج.. نظرت بدقة متناهية عبر النوافذ.. فلم أرَ سوى بضع شجرات.. وجداراً واحداً. طيب وأين البحر؟

قلت لزوجتي:

ـ انظري أنت أيضاً بتمهل ودقة.. أنا لم أر بحراً ولا غيره.

قالت زوجتي:

ـ أنا الأخرى لا أرى بحراً ولا شيئاً يشبهه.

قلت لصاحب البيت:

ـ أعتقد أنك قد قلت لنا أننا نرى البحر من الشقة يا سيدي. على الأغلب يبدو أننا سنعلق منظراً للبحر على الجدار المقابل وسننظر إليه؟

ـ واه.. ما هذا الكلام.. يعني لا يرى البحر من منزلي؟

كان على وشك أن يجرنا إلى المحكمة.. لأننا قللنا من قيمة بيته عندما قلنا.. أن البحر لا يرى من منزلك.

قلت:

ـ عفواً.. لم يكن قصدي تحقير منزلك.. ولكننا حقيقة لم نر البحر لا أنا ولا زوجتي.. ربما رآه الآخرون أما نحن فلم نره.

نادى نحو الأعلى:

ـ أحضروا كرسياً..

أتت الخادمة بكرسي.. صعد الرجل على الكرسي.. وصرخ صرخة كالبحَّار الذي رأى شاطئ أمريكا.. من سفينة كريستوف كولومبوس.. هذا هو البر.. هذا هو البحر.. فقد صرخ الرجل.. هذا هو البحر.. هذا هو البحر انظر إنه كبساط تحت الأقدام.

نزل عن الكرسي وصعدت إليه.. الله.. الله.. لم أجد شيئاً يشبه البحر.. حيث كنت أنظر.. هل الرجل يتخيل البحر ويراه أو ربما هو

مجنون.. وربما سيقنعنا بوجود البحر بالترداد.. هذا هو البحر.. هذا هو البحر.

ـ يا سيدي.. عفواً.. أنا أعرف البحر تماماً.. وأنا شخصياً ولدت في استانبول وترعرعت فيها. أنظر من النافذة.. لا يوجد سوى بضع بقع زرقاء.. وهي في الجو.. وربما أنها في الهواء.. وفيها سحب أيضاً.

سألني الرجل:

ـ كم طولك؟

لو كنت في مكان آخر.. ما ذكرت طولي.. ولكنني قلت:

ـ مائة وثمانية وخمسون سم.

قال:

ـ تمام.. ليس لله تعالى.. تعجبت لماذا لا يشاهد البحر هذا الرجل هل نزلت غشاوة ما على عينيه يا ترى.. لقد فهمت السبب.. عدم رؤيتك للبحر.

ـ لماذا يا ترى لم أشاهد البحر حسب رأيك؟

ـ لأنك قصير.. على الأقل يجب أن يكون طولك مائة وسبعين سم.. قف على رؤوس أصابعك لنرى..

وقفت على رؤوس أصابعي.. لم أر البحر أيضاً.

ـ اقفز بعض الشيء.. ترى البحر.

كنت أقفز فوق الكرسي دون توقف.. كي أشاهد البحر.. حتى كاد رأسي أن يصطدم بالسقف.. ولم أرَ شيئاً يشبه البحر أو غيره.

صرخ صاحب البيت:

ـ أحضروا الطاولة الصغيرة التي على الشرفة.

جلب الطاولة.. وضعها الرجل أمام النافذة ووضع الكرسي فوقها. وصعدت أنا فوق الكرسي.

سألني:

ـ وماذا تشاهد الآن؟

من شدة فرحي كنت سأقفز عن الكرسي كالجمباز.. ولكنني صرخت بأعلى صوتي:

ـ رأيتتتته.. رأيته.

ـ ماذا رأيت؟

ـ رأيت بحراً.. نعم بحراً.

قالت زوجتي:

ـ عجبي عليك.. صعدت فوق الكرسي والطاولة وعرضت نفسك للتهلكة كي ترى البحر ورأيته.. مبروك.. أهنئك من قلبي.. أي طرف من البحر رأيت.. جهة بحر مرمرة أم جهة البوغاز؟

ـ لم أعرف بحر أية جهة حتى الآن.. رأيت بحراً بحجم أو طول الشبر.

وخزت شوكة كلامي صاحب البيت امتعض قائلاً:

ـ تقول إنك من استانبول ولا تعرف الطرف الذي شاهدته.. البحر الذي رأيته يقع بين قلعة البنات ورأس السراي..

نزلت عن الكرسي والطاولة بمساعدة كل من صاحب البيت وزوجتي والبواب..

ـ أوووه.. لقد أحييت أنفاسي.. إن هواء البحر غير شكل.

وبما أن زوجتي بدينة قالت:

ـ أنا لا أستطيع الصعود على الكرسي والطاولة كي أشاهد البحر.

ـ الصعود على الطاولة والكرسي شيء صعب للغاية.. عندما ننتقل إلى هنا نقوم بترتيبات أخرى حول الموضوع.

قالت زوجتي:

ـ الإنسان يجب أن يشاهد البحر وهو نائم.

قال صاحب المنزل:

ـ من مكان نومك أيضاً تشاهدين البحر.

ـ وكيف ذلك؟.. يعني سننام فوق الطاولة والكرسي؟

ـ لا.. المستأجرون الذين كانوا قبلكم.. كانوا يرون البحر وهم مستلقون على السرير.. ألا تعرف جهاز (البارسكوب) البحري..؟ سترتبون أنفسكم وتشترون جهازاً من هذا النوع.. عندها تستطيع أن ترى البحر وأنت ممدد على الأرض.

ـ ماذا قلت (باراسكوب) وهل هذا الجهاز موجود في الأسواق يا ترى؟

ـ عفواً.. الظاهر أنك بقيت كثيراً خارج استانبول.. الآن أكثر من ثمانين بالمائة من بيوت استانبول يستعملون هذا الجهاز.. وهو من أهم ضروريات المنزل على الإطلاق.عندما تعود إلى بيتك مرهقاً مساء كل يوم تتمدد على الأرض وتلقي نظرة على البحر من خلال الباراسكوب تنسى كل همومك وأتعابك.

ـ إنك تقلل من قيمة هذا المنزل يا سيدي.

قال صاحب المنزل:

ـ ولماذا؟

ـ هذه الشقة تدخل لك في اليوم مائتي ليرة وليس في الشهر.

ـ كيف يعني.

ـ لأنها فرصة سانحة للذين يريدون رؤية البحر بشكل جميل.. أعطِ إعلاناً للجرائد.. الساعة الواحدة بليرتين ونصف.. بعدها تتعب من كثرة قطع التذاكر على الباب.

كنا على وشك أن نقع في شجار كبير مع الرجل.. وخرجنا..

قالت زوجتي:

ـ لو رأيت البحر مرة واحدة على الأقل.. أنا أيضاً..!

○ ○ ○

حصان السائس

عاش جيلنا السعادة المطلقة مع أهم منعطف في تاريخ تركيا الحديث.. أو ربما تعرض إلى الشقاء بعينه والسبب انتهاجنا للسياسة الديمقراطية والتعددية الحزبية.

(هذه المقدمة الجافة مثل كتابة زاوية في جريدة.. هل تكون القصة الساخرة بهذا الشكل؟!)

والقصة المسماة (حصان السائس) بدأت بمثل هذه الأقوال والكلمات الجافة.. لأن الكاتب على يقين كامل بأن السياسيين في بلدنا يشبهون إلى حد كبير حصان السائس هذا.

(لو كان عندنا حرية الفكر والمعتقد.. لكنتم مجبرين على احترام أفكاري هذه.. أنا أشفق عليكم).

أستطيع أن أقسم السياسيين عندنا.. منذ دخولنا عهد التعددية الحزبية عام ١٩٤٥ إلى قسمين. الذين يشبهون الأحصنة تماماً.. والذين يشبهون حصان السائس (لن أقول شيئاً ولكن أتمنى أن تقع مرة بيد السياسيين).

كما تعلمون أن الحصان هو الرفيق الأول للإنسان.. يمشي وفق طلب راكبه. مع أن أحصنة السياسيين ليست كذلك. إذا جرى الحصان الذي قبله فإنه يجري.. وإذا وقف هذا الحصان تقف هي أيضاً.. ثم إن أحصنة السياس لا تأبه بآثار أي حصان يمشي خلفها.. يكفي أن يكون أمامه حصان فقط.. أي حصان كان.. من أي لون وأي نوع كان.. حتى ولو كان حصاناً عربي الدم. فقط أن يكون أي حصان أمامه.

ما رأيكم لو نترك شلّة السياسيين ونتمسك بأحصنتهم فقط.

عندما دخلت الكلية الحربية.. أخذنا بضعة دروس في ركوب الخيل. وبعض التعليمات.. ظننا أننا قد تعلمنا ركوب الخيل تماماً. كنا آخر الطلاب الذين تخرجوا من الكلية الحربية في استانبول.

في أحد الأيام.. قالوا لنا عندكم (تطبيقات).. وقسمونا إلى طابورين.. أحد الطابورين (القوة الحمراء)، والثاني (القوة الزرقاء).. هذا الصراع المرير بين الطابورين لم أفهم ماهيته في يوم من الأيام.. لأنه في نهاية كل مناورة.. يركزوا على هزيمة القوة الزرقاء في كل الأحوال. مع أن الزرقة لون جميل.. وأحزن كثيراً على هزيمة القوة الزرقاء (هنا في القصة.. أرجو أن لا تسخروا مني)

(هذه إضافة للطبعة الثانية للقصة. قديماً.. كانت المناورات العسكرية.. أو الألعاب الحربية تجري.. نحن القوة الحمراء.. والعدو القوة الزرقاء.. وحسب ما يقولون.. أو إذا كان ما يقولونه صحيحاً فقد أصبح الآن عكس ذلك، بعد عام ١٩٧٢.. أصبحنا نحن القوة الزرقاء والعدو أصبح القوة الحمراء).

في كل المناورات العسكرية.. لم نحظ ولو مرة واحدة بنجاح القوة الزرقاء أو غلبتها.. لأن الأزرق عدو.. لو كنت مكان القادة لجعلت العدو باللون الأخضر (كيف..؟ هل أعجبتكم فكرتي.. الأيديولوجية موجودة.. طبعاً فهمتم ذلك..)

نعم الزرقة هي عدو.. ومن أهم مهمات العدو الخسارة دائماً.. ودائماً لا يطبق المثل القائل (حساب السوق لا يتوقف مع حساب الصندوق) إلا في معركة الحمرة والزرقة.. حيث حساب السوق يتوافق دائماً مع حساب الصندوق في هذه المناوشات الحربية بين الحمرة والزرقة..(ولك أفندي طولت هالمقدمة علينا كثيراً.. إذا بدك تحكي قصة حصان السائس احكها وخلصنا).

على الرأس والعين.. سأقصها.. أنا كنت من القوة الحمراء.. كل جندي أخذ إما شريطاً أزرق أو شريطاً أحمر.. وثبتنا هذه الأشرطة كإطار على قبعاتنا (السيدارات). وبما أننا من القوة الحمراء كانت قطعة القماش الحمراء.. نحو الخارج.. جعلوني ساعي البريد للقوة الحمراء.. طبعاً عن طريق الحصان.. هذه المهمة.. كان كل واحد يتمناها ولا ينالها.. أما زملائي فكانوا جميعاً بلباس الميدان الكامل مع عتادهم العسكري وسيراً على الأقدام.. سيقفزون وينبطحون هنا وهناك.. سيتقدمون ويتأخرون.. أما أنا.. فراكب على الحصان.. هذا الأمر لم يكن سهلاً كما ظننته.. بعدما ركبت حصان السائس.. أن تجري وتتقدم وتتأخر وتقفز.. حتى تطير في السماء كالطيور.. وتسبح في البحر كالأسماك.. أسهل بكثير من ركوب حصان السائس.

خرجنا من المدينة.. وصلنا إلى الأراضي المفتوحة ما بعد هضبة (الحرية الأبدية) (هنا توضيح إجباري: كانت تلك المناطق والأراضي قديما مفتوحة.. الشياطين فيها أكثر من البشر..)

كل من القوتين.. الحمراء.. والزرقاء.. أخذت مواقعها.. شخصياً كنت خلف قائد القوة الحمراء. وبما أننا نحن الاثنان.. القائد وأنا على صهوتي جوادينا.. لم يحدث ما يعكر صفو العمل.. كنت أحسب أنني أحضُّ الحصان الذي اركبه.. ولكنه كان حصان سائس ليس إلا.. يمشي خلف حصان العقيد.. يتبعه في كل حركاته وسكناته.. أليس هناك أناس يسيرون هكذا في الحياة الحقيقية التي نعيشها؟؟ إذا سارت الأحوال والأحداث كما نشتهي.. نجعل العالم كله من خلفنا يسير كما نشاء.. أو هكذا نظن.. وهذا غباء من بني البشر.. فإذا لم تسر الأمور كما نشتهي.. تصطدم الأمور بالحقيقة المرة.

(انتباه..! هذه فلسفة القصة.. أليس جميلاً؟)

كان العقيد القائد الذي أحبه كثيراً قد نال عدة جوائز عالمية في السباق وركوب الخيل.. أي أنه كان فارساً ممتازاً إلى حد كبير، ومشهوراً جداً.. إلى جانب ذلك كله كان قاسياً إلى أبعد الحدود.. فهو عقيد بكل معنى للكلمة.. من أعلى قبعته إلى كعب جزمته الحديدية.. وكل من يراه على إحدى البلاجات بالمايوه يسبح أو يتمشى ضمن آلاف من البشر يقول فوراً:

ـ هذا عقيد حقيقي.

كنا واقفين.. وإذا بالحصان الذي أركبه يقفز فجأة.. فقذفني عن سرجه إلى رقبته.. تعلقت برقبة الحيوان.. ماذا حصل له؟ لا أدري. لم أسحب الرسن أبداً.. ولم أثره بالمهماز.. لم أفعل شيئاً على الإطلاق.. ولكن العقيد كان قد همز حصانه بمهمازيه. وصار يجري.. لم يتوقف حصان السائس الذي أركبه..؟! ولك آمان.. الأمر أخطر مما توقعت.. صار يقذفني إلى الأعلى وأعود جالساً على سرجه.. مرة على رقبته وأخرى فوق ذنبه وأعود ثانية إلى السرج. نحو الأمام وإلى الخلف وإلى اليمين واليسار.

قلت الأفضل أن أقع وأتخلص من هذا المأزق.. ولكن عندها سيبقى القائد دون مراسل. لو صرخت.. سيكون عيباً.. أتعلق بالرسن بيدي وأتعلق بالسرج برجلي.. وفجأة أفلت الرسن من يدي.. أي واه...!! تعلقت بيد واحدة برقبته وتمددت على ظهره.. وصلنا أمام إحدى الكتائب المنتشرة هناك.. لو سقطت عن الحصان الآن سأحرج أمام زملائي.. وسيسخرون مني حتى أحال إلى التقاعد.. كنت أترجى الحصان:

ـ ضنايا.. أبوس عيونك.. شوية شوية ولك.. شوية ولك قليل الناموس غووش.. غووش.. أرجوك.

عندما لم يصغ الحصان إلي، ولم يرحمني أو يرأف بي...بدأت أدعو الله:

ـ يا رب.. يا رب.. ربي لا تخذلني أمام زملائي.

لم يبق عندي مجال غير الدعاء إلى الله.. لأن الرسن قد أفلت من يدي.. والرفق والرحمة لا يأتيان من الحيوان.. ماذا يفعل الإنسان يعني غير الدعاء؟ الذين لم يركبوا خيولاً لا يعرفون صعوبة هذه المواقف.. لا أستطيع أن أركز نفسي على السرج.. ولا الحصان يضعني مكان الراكب.. يرميني مثل كيس تبن من طرف إلى طرف.. مع هذا كان فيه بعض الوجدان والذوق لأنه لم يلقِ بي أرضاً..

المصيبة الكبرى حصلت عندما أوقف العقيد حصانه.. لأن حصاني كان قد مد رجليه الأماميتين نحو الأمام وجمد في مكانه.. بعد وقوف حصان العقيد. أما أنا فلم أستطع أن أهدئ نفسي فوقه من ردة الفعل.. فطرت في الهواء كرياضي أو لاعب قوى.. طرت من فوق حصاني ووقعت فوق أرجل حصان العقيد الخلفية.

أول عمل قمت به.. نظرت من حولي لأرى إن كان أحد من زملائي قد رأى سقوطي عن الحصان.. يبدو أنه لا أحد رآني.. لأنني لم أسمع ضحكاً حولي.. أسرعت وتعلقت برسن الحصان وبدأت أرجوه:

ـ أووه.. يا روحي أنا.. ماذا يحصل..؟ شوية.. شوية..

واعتليت ظهره.. تحدث القائد مع قائد الكتيبة وقاد حصانه.. عندما تحرك حصان العقيد.. لم يبقَ ما يدعو للتمسك بالحصان.. فانطلق هو الآخر كالسهم.. هذه المرة كانت يداي قد تعلقتا بجلد الركاب.. وخشيت أن أقع على الأرض وتقطع يدي قبل أن أرفعها من تحت الجلد.. كنت أطير في الهواء وأعود إلى ظهر الحصان.. أحشائي كادت تتمزق وتخرج من فمي.. انتهيت .. إنني أموت..

عندما أوقف العقيد الحصان أمام الكتيبة الأخرى توقف حصاني أيضاً فجأة.. كل تعبي ذهب سدى.. لم أقوَ على تثبيت نفسي فوق ظهر الحصان.. طرت في الهواء وسقطت جالساً على الأرض.. أن تسميها جلسة ليس صحيحاً أبداً . لأن البشر لا يجلسون على رؤوسهم.. ليس الرأس أداة الجلوس عند الإنسان.. وبما أنني لم أترك جلد الركاب من يدي.. تظاهرت بأنني أنا الذي قفزت بنفسي على الأرض.. لأنني قفزت ثانية على ظهر الحصان.

ـ يا إلهي العظيم لا تخجلني!

أطلق العقيد العنان لحصانه ثانية.. في هذه المرة كانت سرعته كبيرة. كنا نطير.. أفضل جري هو على أربعة.. لأن الراكب العجمي مثلي لا يتحرك عن ظهر الحصان. عندما وصلنا أمام الكتيبة الاحتياطية.. أوقف العقيد حصانه فجأة.. وكذلك وقف حصاني فطرت ثانية في الهواء..

ولكن هذا الطيران كان مثل طيران عباس بن فرناس، من يحب الله لا يلومني.. هل تعرفون إلى أين طرت.. على ظهر العقيد وهو على صهوة حصانه.. ليس من المعقول أن يكون على وجه الدنيا إنسان يلقى مثل هذه المواقف. كنا شخصين على ظهر حصان العقيد.. القائد ومراسله في زحمة من المصائب والبلاء.. ومع هذا يجب أن يظل الإنسان يبحث عن مخرج ما.. وقعت خلف العقيد..

التفت العقيد إلى الخلف وصرخ:

ـ ما هذا؟

قذفت بنفسي إلى الأرض:

ـ أفندم..

وبدأت أتأتئ بكلمات لا معنى لها.. إلا أن العقيد لم يرعو..

قفزت على ظهر حصاني.. أعطاني القائد أمراً كي أوصله إلى الكتيبة الخامسة. يجب أن أقود الحصان نحو الكتيبة الخامسة طبعاً.. حركت ساقي.. لم يتحرك.. وخزته بالمهماز.. لم يتحرك.. إذا لم يتحرك حصان العقيد.. فحصاني لا يتحرك أبداً.. عندما حرك العقيد حصانه .. سار حصاني خلفه.. صرخ العقيد بقوة:

- ماذا قلت لك؟

لم أجب.

- ألم أقل لك.. أن تذهب إلى الكتيبة الخامسة؟

أيضاً لم يصدر عني أي صوت..

- ماذا تقول؟

لست أنا الذي أتوقف.. ولكنه الحصان.. ولكن كيف ستوضح هذا الشيء للعقيد..

غضب العقيد وصرخ:

- (روح من هون).. (روح من هون).. لا أريد مراسلاً مثلك.

ولكن كيف سأذهب من أمامه.. لا أستطيع أن أوضح له الموقف.. وحصاني يتبع حصانه خطوة بخطوة.. هل أتعلق بالرسن وبالركاب.. كي أدير وجهته عكس اتجاه العقيد.. ولكن الحصان ابن الحصان لا يسمعني أبداً.

- اغرب عن وجهي ولك ابني.. هل أنت مصيبة حلَّت بي.. «روح من هون ولك».

- يا سيدي.. أنا أريد الذهاب.. ولكن هذا الحصان لا يريد الذهاب.. هذا الحيوان.

لان وجه العقيد بعض الشيء وابتسم.. وأدار بوجهه نحو الطرف الآخر كي لا يظهر ضحكته لي وقال:

ـ انزل عن الحصان.

سأنزل عن الحصان.. ولكن هناك فارسان يتجهان نحونا.. عندما شاهد حصاني الحصانين القادمين.. لم يعد يتوقف؟!.. قفز فجأة وطار خلفهما.. يا لها من مصيبة.. يا لها من مصيبة.. أصبح جهدي الآن منصباً كي لا أقع عن الحصان.. لأننا نطير.. ولو وقعت سأتحطم شر تحطيم. نعم .. في النهاية وقعت.. ولكن رجلي لم تخرج من الركاب.. بدأت أزحف على الأرض.. كان الموت قريباً مني إلى أبعد الحدود.. ولكن لم أمت لأن الحصانين الآخرين توقفا أمامي.. ووقف حصاني.. تخلصت من الموت بأعجوبة من كثرة الزحف.. كان بنطالي قد تمزق كلياً.. والدم يسيل من ركبتي كأنه نبع.

الضابطان اللذان نزلا عن حصانيهما سلماهما للسائس. رجعت ثانية إلى ظهر حصاني.. وبدأ يسير بي وقد هدَّل أذنيه نحو الأرض. كنت خائفاً بشكل مثير.. ربما يظهر حصان ما.. من جهة أخرى.فحصاني سيتبعه أيضاً.. وفعلاً جرى مثلما توقعت.. في ذلك اليوم تعلق حصاني بحصان آخر شاهده أمامه.. فتبعه.. وأنا على ظهره أروح وأجيء وأدور في ساحة المناورة من هنا إلى هناك على كيف حصاني.. ووقعنا ضمن القوة الزرقاء التي هي الأعداء.. وعلى الفور أطبقت على الإشارة الحمراء الموجودة على قبعتي وأظهرت الإشارة الزرقاء.. كي لا أقع أسيراً في أيديهم.

وثانية كاد حصاني أن يعلقني على غصن شجرة اصطدمت بها.. ولكن الغصن سحب القبعة عن رأسي وبقيت دون قبعة.. ووجهي مملوء بالجروح والخدوش إثر اصطدامي بالغصن.

ثم جرى بأقصى سرعته.. واصطدم بحصان متجه نحونا.. وهنا لمعت الصواعق في وجهي.. غبت عن الوعي مدة من الوقت.. وعندما صحوت.. وجدت نفسي على ظهر الحصان مرة أخرى. ولكن هذه المرة فوق حصان أبيض. فنتيجة الاصطدام كانت أن تبادلنا الأحصنة دون وعي. لأنني طرت في الهواء.. ووقعت على ظهر الحصان الآخر.. أما الرجل الآخر وحصاني.. فلم أعرف عنهما شيئاً.

كان الحصان الأبيض الذي أركبه جيداً.. أقوده وأسيره على كيفي.. إذن ليس حصان سائس.

لم أعد أستطيع تمييز الجهات.. أذهب نحو الجبل.. وأنا في حيرة وتعجب من أمري.. دخلت ضمن وحدة عسكرية.. قال لي أحد الضباط وهو نقيب:

ـ تعال إلى هنا.

نزلت عن الحصان.. سلمت عليه.. ولكن رأسي عار.. ليس عليه قبعة.. حتى أن حزام البنطال غير موجود.. ولباسي تمزق من جميع أطرافه.. وركبتيَّ غاصتا في بحر من الدماء ووجهي مشوه من كثرة الخدوش والجروح والدم يسيل.

قال النقيب:

ـ ما هذا..؟ ما الذي جرى لك..؟

ماذا أقول له يعني..؟ كل الزملاء خلف النقيب.. ولكي تفهموا حزني وألمي.. يجب أن تعرفوا ماذا كان يدور في خلدي تلك اللحظة. سأصبح جنرالاً.. نعم جنرال..

قلت:

ـ وقعت بين قوة من الأعداء يا سيدي.. كانوا سيأسرونني.. فهربت منهم.. وصار الذي صار.

ـ ما عملك؟

ـ أنا مراسل يا سيدي وأتيت لك بخبر من العقيد.

وشرحت له الأمر.. هل تدرون لمن جلبت الخبر.. للقوة الزرقاء.. يعني للأعداء.. لأنني شخصياً كنت من القوة الحمراء.. ومن شدة حيرتي وتعبي أوصلت أمر قائد القوة الحمراء للقوة الزرقاء.

بعد إيصالي هذا الخبر.. وجراء هذا الخطأ الذي ارتكبته تشابكت الأوامر والوحدات والأعمال.. ولكن وكما في كل مرة.. غلبت القوة الحمراء.. القوة الزرقاء.

الآن ربما تفهمون لماذا شبهت بعض السياسيين بحصان السائس.. لأنهم لا يسيرون لوحدهم.. ولا يسيِّرون أنفسهم على كيفهم.. لا يجرون.. يجب أن يكون أمامهم ظل لسياسي ما.. حتى يسيروا من خلفه.

○ ○ ○

لا يكون المزاح بالسروال الداخلي

كما تعرفون.. في المدارس الداخلية.. يوجد طلبة عازبون.. وطلبة متزوجون.. أيام السبت يبقى المتزوجون في منازلهم.. أما العازبون فيبقون طوال الفترة الدراسية في المدارس.

كان الفارس (صلاح الدين) عازباً مثلي.. وكما هي العادة.. كانوا يوزعون لنا الثياب المغسولة مساء أيام الآحاد..

صرخ عريف المهجع:

ـ كل واحد يأتي ويأخذ ثيابه.

كان كل منا يسلم ألبسته المتسخة ويأخذ المغسولة أو المنظفة.. كنا.. نضع إشارات على ثيابنا الداخلية كي لا تتبدل فيما بيننا.. وتكون الإشارة بالحبر أو نكتب أسماءنا بالخيط الأسود.

طبعاً كل واحد يغضب أو يتعصب من شيء معين.. والفارس صلاح الدين هذا.. كان يغضب كثيراً من الأرقام التي كنا نضعها على ألبستنا.. كان لا يكتب اسمه.. يبعد عنه الألبسة المغسولة ولا يتحرك من مكانه. وبعد أن يأخذ الجميع ثيابهم المرقمة أو المؤشرة يتحرك من مكانه ويقول:

ـ الباقي من الثياب لي.

لم يكن تصرفه هذا إلا نوعاً من أكل الهوى..

بعض الأحيان لا يبقى شيء من الثياب المغسولة الموزعة.. ولهذا لا يأخذ شيئاً. وبعض الأحيان يعود ويداه مليئتان بالثياب.. أكانت هذه

الثياب ملكه أو ملك غيره.. لا أحد يدري.. كومة من الثياب غير المؤشرة.

ينظر إليها بحيرة وتعجب ويقول:

ـ ولك أخي.. والله لم يكن عندي قميص بهذا الشكل..

في أمسية الأحد تلك عاد من المولد بلا حمص.. عاد فارغ اليدين.. لم يبق قطعةٌ واحدة من الثياب على الأرض. قال:

ـ لم يبق حتى منديل واحد!

ـ أليس عندك ثياب نظيفة؟

ـ عندي.. ولكن ليس عندي سروال داخلي.

قلت له:

ـ سأعطيك سروالاً من عندي.

قال:

ـ ولكن قياسك غير قياسي.

في الفروسية.. البنطال والسروال الداخلي مهمان جداً.. لأن الاثنين يأتيان توصية أو تفصيلاً.. يجب أن يشد على ساقي الفارس تماماً.. راكبو الخيل يعرفون ذلك جيداً. إذا لم يلتصق السروال والبنطال جيداً على الساق.. يصبح ركوب الخيل صعباً جداً.. وخاصة عندما يجري أو يعدو الحصان بشكل سريع.. فعند الحركة ترتفع أرجل البنطال أو السروال إذا كان واسعاً.. ويظل يتكور ويتكور حتى.. يصعد نحو الأعلى ويتجمع في نقطة معينة.. ويصبح الخيّال معها في حالة اضطراب وحيرة.. ومهما حاولت سحبهما نحو الأسفل يعيدان الكرة من جديد.. وينسحبان نحو الأعلى ثانية. أما إذا كان السروال ضيقاً يشد على الساقين.. ولا يتحرك أبداً أثناء

السباق. ولهذا السبب يجب أن يكون سروال وبنطال الفارس على قياسه تماماً.

بدأ صلاح الدين يفكر ملياً.. وكان من المفروض أن يقوم جنرال بتفتيش القطعة ومراقبة الفرسان أثناء القيام بحركات بهلوانية والدروس الجديدة التي يأخذونها. وكان تفكيره منصباً بهذا الاتجاه.. كان صلاح الدين يحب اختصاصه كثيراً.. ولا يريد أن يفشل في عمله من أجل سروال داخلي.

فكرنا معاً.. ووضعنا الحلول.. تذكرت جمال.. وجمال من نفس قياس صلاح الدين.. نفس الطول والعرض وسرواله الداخلي يصلح لصلاح الدين تماماً.. قال صلاح الدين:

ـ جمال لا يعطيني السروال.

ـ ولك أخي ماذا ينفع سروال واحد.. وخاصة ليوم واحد فقط.

وجمال هذا من الأشخاص الذين يحبون النظافة كثيراً ومهووس بها إلى حد كبير.. يغسل يديه في اليوم الواحد أكثر من عشرين مرة. ثيابه دائماً نظيفة.. خالية من الأوساخ والبقع.. نعم لا يعطي سرواله لأحد.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ والله لا أدري.. مصيبة.

العميد المسؤول عصبي المزاج كثيراً.. يعلمهم ركوب الخيل. وهذا العميد الذي أصبح زملاؤه جنرالات منذ مدة طويلة.. يعشق الخيل وركوبه.. ومن شدة حبه للفروسية وركوب الخيل لم يبق في جسده إلا عدة عظام لم تتكسر.. أرجله.. ذراعاه.. قفصه الصدري.. كل مكان في جسده مكسور.. حتى أثناء مشيته.. تسمع أصوات الكسور في عظامه.. كل تفكيره منصب على تربية الخيول.. حصانه

يرقص رقصة (الرومبا).. لم يبق شيء بينه وبين حصانه سوى أن يكلمه.

همَّ هذا العميد إظهار براعة فرسانه.. في ركوب الخيل أمام الجنرال الذي سيأتي إلى التفتيش.. ويحب صلاح الدين كثيراً لأنه من الطلبة المتفوقين.

- ماذا سنفعل؟

- سنطلب السروال من جمال.. لمرة واحدة.

كان صلاح الدين يخشى أن يخجل العميد أمام الجنرال.. ويخجل هو أمام العقيد.. كان خائفاً جداً من هذه المسألة.

ذهبنا إلى جمال وشكونا له الأمر، قال:

- ولك أخي.. أمن المعقول أن يعطي الإنسان سرواله الداخلي..؟

- ولك عمي ماذا يحصل يعني؟

- كيف ماذا يحصل يعني.. كيف سألبس السروال الذي ستلبسه. ماذا أفعل به؟

لم أستطع أن أتحمل. قلت له:

- اجعله منديلاً.

- والله.. أعتذر يا شباب.. لا تزعلوا مني.. لو طلبتم مني شيئاً آخر أعطيته لكم.. ولكن السروال.. أبداً.

- ولك أخي.. لمدة التفتيش فقط.

- لا يمكن ولك أخي.. سيتعرق.. سيركب الحصان.. كيف سيصبح حال السروال..؟

- تغسله..

ـ ولك أخي.. عرق الفارس لا يخرج أبداً.

ـ طيب.. هل تبيعنا هذا السروال.. كم ثمنه؟ لنعطيك..

لا يبع أيضاً.. سيقولون عنه أنه باع السروال المستعمل لزميله..

ـ لا تزعلوا مني.. لا أعطيكم سروالي.. لو كان شيئاً آخر أعطيه..

نظرت في وجه جمال.. وقلت له:

ـ ولكن أنت المتضرر في النهاية.

على الأغلب فهم ما كنت أقصده.

في الحصة الأخيرة.. ذهبنا أنا وصلاح الدين إلى المهجع.. كان الجميع في الصف.. فتحنا خزانة جمال.. كل ثيابه ضمن بقجة.. فتحنا البقجة.. ليس فيها سوى سروال واحد.. ولا شيء آخر. سروال على مقاس الجسم بالزر وليس بالبلاستيك..

أخذ صلاح الدين السروال.. رسمتُ على ورقة رأس حصان وكتبت أسفلها (عصابة النضوة الذهبية).. ووضعتها ضمن البقجة.

إذا لم يعطه بالتي هي أحسن.. نأخذه هكذا.

نظرت إلى جمال في اليوم التالي.. كان غير مبالٍ.. بالتأكيد لم يفتح البقجة.. ولم يلاحظ شيئاً.

في الصباح الباكر ذهب الفرسان إلى (أي آزاغا).. ليقدموا العرض المطلوب منهم.. أما نحن فقصدنا هضبة (الحرية الأبدية) لنقوم ببعض المناورات.

عند المساء عدنا إلى المدرسة.. كان الفرسان لم يرجعوا بعد.وفيما كنا في المطعم.. عاد الفرسان. ثمة ضجة وصراع وصراخ يصدر من الطرف الآخر للمطعم.. سمعت صوت صلاح الدين.

ـ هيا قل لي.. لمن كان ذاك السروال؟

خلصنا جمال من يده بصعوبة بالغة.

قص لنا صلاح الدين القصة:

ـ لبست ذلك أبو الزر عند الصباح.. ركبت الحصان وذهبنا إلى مكان التطبيقات. لم ألاحظ شيئاً أثناء ذهابي إلى هناك دخلنا الحلبة.. وجاء الجنرال أيضاً.. والعميد مثل الصاروخ.. يعدو بحصانه بالسرعة القصوى.. ونحن من خلفه.. حيث بدأت ساقا السروال بالانسحاب نحو الأعلى.. يا الله.. ولك أخي والله صار مثل الكرة ودخل بين ساقي.. أنزلنا العميد عن الخيول.. الخيول تسير بسرعة البرق.. على أربعة نعال.. ونحن على جنباتها.. سنركبها ثانية وهي تعدو.. عندما قفزت عن الحصان.. وإذا بأزرار السروال تتقطع.. وينزل إلى أسفل رجلي.. اقترب الحصان مني.

سأقفز على ظهره.. سأقفز ولكن لم أستطيع أن أفتح ساقي.. الجميع ركبوا خيولهم ومضوا.. بقيت وحيداً عاجزاً.. كانت عظام العميد تصطك لشدة غضبه وعصبيته.. دارت الخيول حول الحلبة وعادت قربي ثانية.. حاولت القفز.. لم أستطيع فتح ساقي.. كان السروال قد لف ساقي تماماً.. دون أن أستطيع سحبه نحو الأعلى بأي شكل من الأشكال. والله يا أخي.. تهزأت على أكمل وجه.. نظرت.. وقلت الأمر لن يستمر هكذا.. في الوقت الذي كان فيه الحصان يمر من قربي للمرة الثالثة، قفزت مثل الكرة على ظهر الحصان دون أن أفتح ساقي.. ولكن بما أنني لا أستطيع فتحهما.. لم أستطع أن أركز نفسي على ظهره.. هوب.. وقعت إلى الجانب الآخر. أنا على وشك أن أتحطم.. أشفق علي الجنرال وقال:

ـ ماذا يحصل لهذا الشاب يا عميد؟

عندما فتحت ساقي نحو الخارج.. إذا بالسروال ينقسم قسمين بصوت

مسموع وقوي.. هذه المرة جلست على سرج الحصان تماماً.. ومع كل نزلة وطلعة على السرج.. كان السروال قد ذهب كلياً.. مما زاد في تكوره وتجمعه بسهولة.

والله أوشكت أن أجن أيها الأخوة.. ولكن البركة في جيب بنطالي المثقوب على الدوام.. حيث بدأت أدخل يدي وأخرج السروال على شكل قطع صغيرة.. وأضعها في جيبي.. مددت يدي لأخرج آخر قطعة بقيت بين ساقي.. وإذا بزميلي نجمي.. يصرخ من خلفي.

- ماذا تفعل؟

- ماذا أفعل؟

- انظر خلفك..

ماذا أرى.. وإذا بأرض الحلبة.. قد امتلأت بقطع السروال.. وقطع أخرى تتطاير في الجولم يبقَ عندي عقل ولك أخي.. كدت أجن.. كنت أرمي قطع القماش البيضاء التي أخرجها من جيب بنطالي في الهواء.. وحسبت أنني أضعها في جيبي.. تبهدلت.. تبهدلت.

قال جمال من الناحية الثانية:

- طبعاً.. عرفت أنكم ستسرقون سروالي. ولهذا فقد رفعت كل ثيابي من الخزانة.. ووضعت سروال (البطاطا نجمي) داخل البقجة.

كان (البطاطا نجمي) أكبرمن صلاح الدين بمرتين.. عندما سمع بطاطا نجمي هذا صرخ بأعلى صوته:

- واي.. سروالي.. أليس كذلك؟

اشتبك الثلاثة بعراك فيما بينهم. صراع، ودفع، وشد حتى سقطوا ثلاثتهم فوق بعضهم.

أما نحن فبدأنا بالصراخ.. اضرب.. اضرب.. اضرب. كي نقوم بمهمة الصداقة الموجودة بيننا والسخرية من تصرفهم.

○ ○ ○

النافذة التي فتحت نحو الغرب

اعتدنا منذ اليوم على ما يلي.. إذا ما خرج صحفي مشهور.. أو كاتب أو سياسي أو مخرج في جولة ما.. وإذا لم يحدث بينهم خلاف حول مادة الخطاب الذي يقدمه السياسي.. فالكاتب يقول أثناء رجوعهم من الجولة:

ـ أنا الذي جهزت هذا الخطاب.

وكم من خطابات كثيرة سمعناها.. وإذا وجب علينا تصديق تلك الخطابات.. فيجب أن نقول بأن الخطاب السياسي لم يعدَّه شخص واحد فقط.. بل أعده أكثر من عشرة أشخاص أو على الأقل قاموا بتصحيحه ومراجعته.. ولهذا السبب نستطيع أن نفهم ونتوصل إلى حقيقة هامة.. وهي أن الخطابات السياسية عندنا.. تكون على العموم فارغة من محتواها ولا تقدم شيئاً بالمرة.

فإذا قرر أحد السياسيين القيام بجولة ما في بعض النواحي.. يجب أن لا يأخذ معه أي صحفي أو كاتب على الإطلاق.. إذا كان هذا السياسي واثقاً من نفسه.. لأن هؤلاء الصحفيين الكتاب.. تراهم يرددون بعد رجوعهم من الجولة كالببغاء.

ـ أنا الذي كتبت هذا الخطاب.

أحد الصحفيين الذي لم يتجاوز عمره الأربعين عاماً قال:

ـ أنا الآخر كتبت خطابات كثيرة فيما مضى.. حتى أن بعض الخطابات التي كتبتها أدت إلى اختيار من ألقوها أعضاء في مجلس الشعب. وخطابان كتبتهما وأنا في التاسعة عشرة من عمري من أجل أحد المطربين.

بعد هذه المداخلة بدأ يتحدث عن سر الخطاب:

ـ بلدنا.. منطقة نائية بعيدة عن المركز.. وهي صغيرة.. ومن السهل جداً أن تظهر مشهوراً في منطقة صغيرة.. بدأت بكتابة بعض المقالات في جريدة الولاية.. عندما كنت في الصف الأول الثانوي. وكان الجميع يرددون: «ما شاء الله ما أقوى قلمه».

عندما أنهيت الثانوية العامة.. كان الخط الحديدي قد وصل إلى ولايتنا. وكان القطار الأول على وشك أن يأتي.. ثمة تحضير لهذا الاحتفال.

كانت تربطنا بأفندينا المفتي قرابة ولكنها بعيدة نوعاً ما فقد أرسل لي خبراً مفاده: «آمان ولك ابني جهز لي خطاباً سأقرؤه عندما يصل القطار».

وسيدنا المفتي شخصية معتبرة جداً في ولايتنا.. سمعنا هذا عندما كنا أطفالاً.. وسمعه الكبار.. والجميع يحترمونه دون استثناء. وما أعرفه ونعرفه جميعاً أن السيد المفتي يعرف كل شيء.. وأعتقد أنه آنذاك قد جاوز السبعين من عمره.. كانت له لحية طويلة بيضاء ولا يخرج من بيته إلا نادراً.. ولذلك فكل كلمة أو حرف يصدر عنه.. يكون معتبراً ومسموعاً لدى الجميع.. ونستنتج ذلك من صمته العميق وعدم خروجه الكثير من المنزل.

وأكثر شيء يعرفه.. كان التاريخ.. وخاصة تاريخ ولايتنا.. وكان يعرف أو على علم بكل الأحداث التي جرت داخل حدود الولاية.. من هم الذين عاشوا في هذا البيت.. وماذا فعلوا.. الحرائق التي حدثت في الماضي.. وزمن البريطانيين.. والجيش الإسلامي. وكيف تم تحرير هذه المدينة.. كان يعرف كل شيء.

كنا جميعاً نشعر بالفخر والاعتزاز.. لوجود مثل هذه الشخصية في مدينتنا.. حتى الوالي.. ورئيس البلدية.. وهاتان الشخصيتان كانتا تعدان شخصيتين بارزتين بعد المفتي.. وكل من يزور مدينتنا أو ولايتنا من مسؤول كبير أو صغير.. يزور المفتي ويقبل يده.

وكان من الواجب أن تتحدث شخصية معتبرة في مثل هذا اليوم الجميل الذي سيصل فيه القطار إلى مدينتنا.. ويجب أن يكون المفتي شخصياً لأنه شخصية مهمة.. وأنيطت مهمة كتابة هذا الخطاب المهم بي شخصياً..؟.؟.؟. وأحسست أنني حملت مسؤولية كبيرة.. في مثل هذا العمر.. ولم أشاهد حتى ذلك اليوم المدن الكبيرة مثل استانبول وأنقرة.. ما كنت أعرف.. ماذا يجب علي أن أكتبه وما سأقوله في مثل هذه المناسبة.. يوم وصول القطار إلى مدينتنا. كل ما كتبته.. أخذته من الكتب المدرسية ومن بعض الصحف والمجلات.. وبعد عمل دام ثلاثة أيام جهزت خطاباً.. وأرسلته إلى المفتي مع عمي.

في اليوم الأول لوصول القطار أقيمت حفلة كبيرة.. تجمهر سكان المدينة في المحطة.. جاءت عربة القطار.. وذبحت القرابين. ألقى المحافظ خطبته أولاً.. ومن بعده خطب المفتي.. أنا شخصياً كنت مضطرباً أكثر منه.. وكان الخطاب كما أتذكره على الشكل التالي:

«القطار.. نافذة مفتوحة نحو الغرب.. سيدخل النور والضياء عبر هذه النافذة.. ليس الضياء فقط.. بل أشياء أخرى كثيرة. لقد جاءت المدينة منقولة على عجلات هذا القطار.. ما معنى العجلة..؟ العجلة ليست إلا قدم الحضارة والمدنية. ولو لم تكن العجلة.. ما كنا موجودين.. إننا نتقدم بخطى جبارة.. وبلدنا ينمو ويكبر باستمرار بسبب هذه العجلات.. انظروا هذا النفق.. إلى هذه الثقوب المحفورة في الجبال.. من هذا الثقب الذي تشاهدونه.. ستأتي أشياء وأشياء.. إن المستقبل المشرق لنا.

هذا كنز.. وعليك أن تجيد الاستفادة منه يا ابن البلد.. وإذا أحسنت استخدامه.. تربح أموالاً طائلة.. وتثري، ويرتفع من شأنك كثيراً.

العجلات ستزحف على السكة الحديدية.. والأعمال ليست صعبة كما كان سابقاً.. في كل سفرة سيجلب لك الخير يا ابن البلد.. وكلما

زاد عدد السفرات.. تكون أنت الرابح في النهاية».

كانت الصعوبة في وصول الطريق إلينا.. بعد الآن سيسافر أبناء بلدي ذهاباً وإياباً براحة من خلال هذه الطريق.. ستزيد قيمة سلعكم وأموالكم.. وأنت أعرف بقيمة مالك.

لنعرف قيمة هذا الطريق الذي أوصلته لنا الجمهورية.. يجب أن نحافظ على نظافة وسلامة القاطرات ونحن ندخل إليها.. ونحن نطأ داخلها.. إذا لم تركبوا بدقة وروية.. تخرب وتتعطل. وإلا لن يستطيع أحد غيرنا أن يستعملها.. إنها ليست ملك الأعداء حتى نخربها ونعطلها.. إنها مالنا.. كلنا.. لكل أبناء هذا البلد مجتمعين.

ماذا يستطيع شاب.. في التاسعة عشرة من عمره، أنهى المرحلة الثانوية في منطقة نائية.. أن يكتب غير هذه الأشياء..

نال خطاب المفتي تصفيقاً.. فاق كل التوقعات المأمول بها.. وكان تأثيره كبيراً جداً.. أكثر من الخطابات التي ألقيت.. والتصفيق يعني القيمة.. وبدأ الناس يرددون: «حقيقة إن المفتي شيخ عميق ومتعمق.. علاّمة..» وبالفعل.. كان المفتي قد حفظ نص الخطاب على أكمل وجه وألقاه بشكل جميل فيه انفعال وحماس.

بعد تلك الحادثة.. كانوا يطلبون المفتي.. في أي احتفال كان، ليلقي خطاباً.. وكان أينما يذهب.. يردد نفس الخطاب الذي كتبته له.. فكان يزيل من مضمونه كلمة القطار.. ويقول الباقي حرفياً. كان ذلك الخطاب جميلاً وقوياً.. بحيث.. لم يسأم أحدٌ من الاستماع المتكرر إليه.. وقد تلي هو نفسه في مناسبات عدة في حفل تدشين معمل في منطقتنا.. وبمناسبة عيد الجمهورية.

لنا قريب اسمه ضياء.. والده غني جداً.. أحضروا له عروساً من استانبول.. وأقاموا له حفلة عرس..لم يشهد أحد مثلها أبداً.. دعي إليها

كل المسؤولين الكبار في المدينة.. نحن أيضاً ذهبنا إلى الوليمة. كانت العائلة.. متعصبة.. الطعام يقدم للرجال في غرفة وللنساء في غرفة أخرى.. ومهما كانت الأحوال.. وبما أن العروس من استانبول.. اجتمع الرجال والنساء بعد الطعام في مكان واحد.. وصارت الحفلة مختلطة. وطلبوا من السيد المفتي أن يلقي خطاباً بهذه المناسبة.. والحقيقة.. لم يوافق المفتي على إلقاء الخطاب.. ولكنهم أصروا عليه بشكل كبير حتى رضخ المفتي للطلب.. فوقف على رجليه وبدأ الحديث:

«أيها الأخوة المحترمون.. أبناء البلد.

هذا العش الذي بني حديثاً ليس إلا نافذة مفتوحة نحو الغرب..»

في بداية الخطاب بدا عدم الراحة والاستياء واضحين على وجوه الناس.. تشبيه العائلة بالنافذة.. وخاصة النافذة المفتوحة نحو الغرب.. جعلت الناس يشعرون بالامتعاض الشديد.. وخاصة أن بيئتنا بيئة متعصبة جداً.. وأكمل خطابه وهو يشير إلى العروس:

«سيدخل ضياء من هذه النافذة.. وليس ضياء لوحده.. ستدخل معه أشياء وأشياء أخرى كثيرة..»

وضياء الذي كان في حالة غير مريحة لأسباب قيل وقال كثيرة بسبب زواجه بواحدة من استانبول.. بدأت عيناه وحاجباه بالحركة والاهتزاز.. يغمضهما ويفتحهما من الغضب والتوتر الذي أصابه.. وكانت يداه ترتعشان.. أكمل السيد المفتي خطابه:

«إنها مدينة على شكل نور.. ركبت القاطرات حتى وصلت إلينا.. سنضمها جميعاً إلى صدرنا.. لأنها ملك لنا جميعاً».

كان الخطاب يقطع بالسعال الغاضب بين حين وآخر:

«ها هي العجلة أمامكم.. ما معنى العجلة؟.. لولا العجلة.. لم نكن موجودين أبداً.. العجلة معناها المدنية.. اليوم التقينا مع العجلة. مع عجلة المدينة».

وضع العريس ضياء يده خلف ظهره.. ربما حصلت جناية ما.. أكمل المفتي خطابه في هذا الجو المتوتر:

«انظروا إلى هذا النفق.. ثمة أشياء كثيرة ستشرق من هذا الثقب.. إن المستقبل المشرق لنا».

كانت الهمهمات والهمسات تضج بصوت مسموع..حيث كانت تقطع خطاب المفتي.. والمفتي يظن أن هذه الهمسات نوع من الإعجاب به والتصفيق له.. وأضاف وهو يدور نحو العريس ضياء:

«هذا كنز.. هذا الكنز الذي وجدته يا ابن البلد استعمله بدقة.. إذا استعملته جيداً.. تربح أموالاً كثيرة تغنيك. ويزيد اعتبارك في البلد.. لم تعد الأمور صعبة كما هي في الماضي.. في كل مرة سيغنيك أكثر.. وكلما زاد عدد المرات.. تبقى شاباً يا ابن البلد».

لولا أن أصدقاء العريس ضياء أمسكوا يده.. لكانت الدماء قد سالت.. همس والد العروس بأذن المفتي شيئاً ما.. فهز رأسه إيجاباً.. وأكمل خطابه:

«العمل الأول هو فتح الطريق فقط.. وإذا ما تم ذلك.. سيذهب الجميع براحة تامة.. لنعرف قيمة هذا المال الذي وجدناه عن طريق جمهوريتنا.. أيها الإخوة.. لا ترتجفوا وأنتم تدخلون إليها وأنتم تطؤون داخلها.. إذا لم نركبها بدقة وروية.. تتعطل.. ولا يستفيد منها الباقون.. هي ملكنا وليست ملكاً للغرباء.. لنستعملها على أكمل وجه.. لأنها مالنا جميعاً».

كان أصدقاء ضياء قد أخذوه من المكان.. فلم يسمع الكلمات الأخيرة من الخطاب الذي ألقاه المفتي.. ثمة رياح باردة هبت بعد الخطاب تعجب المفتي من عدم التصفيق له..

بعد ثلاثة أيام.. أرسل ضياء عروسه إلى استانبول.. وطلقها.

ο ο ο

بعض الأشعار الانتقادية

نحن على إثرك يا أبي

إذا كنا نعيش الآن يا أبي
من قلة أدبنا.
نسأل عن السهام الستة
في دهاليز السياسة
حزبك من بعدك
ترك الانقلابات
سأصف لك حالنا
إذا أعطيت الإذن لقلمي

الرجعيون والأغبياء
يعيشون أفضل منا
ينادون.. أبي.. أبي.. أبي.. ولكن
لا يلفظون اسمك

الشعب والدولة
هما في حزن شديد لا أستطيع أن وصفه

والمزيفون.. منذ وقت طويل
ثقلاء جداً في كفة الميزان

هناك أمل واحد.. فقط
وهو في الدولار الأمريكي

لا تسأل يا أبي عن حالنا
لأنه لم يبق لنا حال نقوله لك.
وهنا قد جثونا على ركبتيك
تعبنا جداً من كثرة النوم
نحن في إجازة لأننا في عطلة
أما في الصناعة.. فما زلنا نصنع
الأشياء اللازمة لجعفر وكفى
نهرول خلف (الجينز) القماش الأمريكي
وسنسبق أوروبا..
أما الآن فنحن في إثرك

عندنا أساتذة.. وحجاج
حتى للطير مدينون
نحن في فم الغريب
ولكنهم لا يجدوننا إلا بصعوبة

نحن خلف.. الشتاء والصيف والربيع
نعم.. كنت قد قلت الصواب
«الأمة التركية أمة مجدة»
نحن أيضاً مع فكرك
لأننا تعبنا من كثرة الاستماع
ولأجل ذلك نحن في إثرك

هناك مقولة: القوة في العضلات
لا يعرف أحد عنوانها
ليس اليوم.. وليس هذه السنة
نحن على إثرك منذ وقت طويل

كم تقدمنا يا أبي.. كثيراً
لو ترانا الآن لا تعرفنا
نحن من طراز أمريكا
حتى لو بحثت عنا لن تجدنا
نحن في إثرك منذ ثلاثين عاماً

○ ○ ○

عفروم ابني أحمد

«عفارم» يا ابني أحمد
وجودك رحمة للخلق والبلد
إياك أن تنوء من التعب
ليهبنا الله العافية والمدد

«عفارم» يا ابني أحمد
استمر في هذا الطريق
يجب أن تمسك واحداً وترمي ألفاً
وتمزج اللحم بالعسل
وإذا اشتكت المعارضة
لا تخف وَبِعْ أمها

«عفارم» يا ابني أحمد
استمر على هذا الطريق
من يتفوه بالديمقراطية
نعتبره من العصاة
ونكسر رأسه
هكذا يكون السياسي

«عفارم» يا ابني أحمد
استمر على هذا الطريق
يجب أن نأخذ كل التدابير
ونظل في الحكم
ويجب أن نسرق مصادر الغذاء
كل يوم من غير هواء

«عفارم» يا ابني أحمد
استمر على هذا الطريق
حاسبهم بكل الفروقات
واخرج بوجه أبيض
ولا تتعب نفسك
في إثبات التهم والتحقيقات.

«عفارم» يا ابني أحمد
استمر على هذا الطريق
الأب والابن.. البنت والخال
اسحقهم دفعة واحدة
أنت وأنا نعيش في أمن
إن أفلتنا من هذه الورطة

عفارم يا ابني أحمد
استمر على هذا الطريق

○ ○ ○

هذا ما أستطيع فعله

المال الذي اختزنته بالأمس بخمس.. غدا يساوي ألفاً وخمسمائة
التاريخ سيقول: إننا رفعنا من شأن البلد
لم نكسر خاطراً ولا قلباً
عملنا بقدر ما نستطيع يا أخي
واسم أبي الخضر
هذا ما أستطيع أن أعمله طوال العمر
الآن نندفع من فوهة بركان
لا تظنوا أننا نستقيل من وظائفنا
وستظل قلوبنا نظيفة
نكتفي بمائة مليون في عشر سنوات

اسم أبي الخضر
وهذا ما أستطيع أن أعمله طوال العمر
الخريطة أمامنا.. باباً.. باباً
ولم نستطع أن نخدع أحداً في بيع النشادر على أنه سكر
لقد تحلل جسمنا.. قطعة قطعة

اسم أبي الخضر

وهذا ما أستطيع أن أعمله طوال العمر
عملنا بالتجارة وبعنا الثلج للأسكيمو
انظر اقتصادنا.. بعنا الملح لبحر لوط
الذهب صار نحاساً
اشترينا القمح من الخارج.. وبعنا الموز للخارج

اسم أبي الخضر
وهذا ما أستطيعه
استوردنا سوتيانات نايلون.. ولم يبق في يدنا عملة صعبة
كسرنا من البندق كثيراً.. لم يبق في يدنا بندقاً ولا جوزاً
الخزينة أصبحت فارغة
لو تعرفون ما الذي قاسيناه بسبب هذا الكرسي العفن

اسم أبي الخضر
وهذا ما أستطيع أن أعمله طوال العمر
بقوتنا وجدنا.. امتلأ سطح الوطن بالنايلون
وبقي المنادي بالسروال الداخلي والقميص الممزق
ليرقص على الدوام شاقير شاقير
ورفعنا البلد بالبالون الاقتصادي

اسم أبي الخضر

وهذا ما أستطيع أن أعمله طوال العمر
وهذا الذي تدحرجنا عليه.. هل هو مائل أم عمودي؟
وهل أريناهم ما عندنا من مهارات
ماذا يعني لو بدَّلنا الصمت بالحرية
وصار الكبث عادة منسيَّة

اسم أبي الخضر
وهذا ما أستطيع أن أعمله طوال العمر
خطتنا لا تشبه الخطط
والأرقام الإحصائية تكلمت بدلاً من الكلام عنها
أصبحنا صفراً عن يسارها
حتى وضعنا أو غرزنا الريش فوقها

اسم أبي الخضر
وهذا ما أستطيع أن أعمله طوال العمر

○ ○ ○

ليس واحداً بل اثنان

هذا الرجل يعرف كل شيء
وما من شيء لا يعرفه
وحافظ للدين والإيمان
حتى صناعة المحشي المزيفة

لم يكتف بالعلم فقط والمعرفة
فوضع الشعب بمستوى الحمير
وعلمهم كل شيء
مثلاً: كيف يتوضأ الإنسان
من أجل وضوء الغسل
ماذا يجدي نفعاً

هو الوحيد الذي يعرف كل شيء
ويجب أن لا أحد يعرف غيره
كل واحد يحسب نفسه (خريةً)
أما هذا الرجل
فيحسب نفسه (خريتين)

○ ○ ○

الدولة العالية

بعد موتكم بعشرة أو عشرين عاماً
هيا.. قل خمسين عاماً
لا أحد يتذكر أو يعرف اسمكم
حتى أحفادنا
لهذا.. لا تفكروا.. لا تغتموا
غايتي أن أقدم لكم خدمة
ذكرت اسمك في كتابي مرات.. حتى
تلعنك وتشتمك الدنيا كلها
وإلى أبد الآبدين
افرحوا.. لأنكم.. أصبحتم خالدين
هذا الذي ما أستطيع أن أقدمه
لك من حسنات.. أيتها الدولة العالية

○ ○ ○

سؤال طفل

ـ بابا..!

ـ نعم يا بني

ـ ليلة الأمس لم أغف أبداً

ـ لماذا يا بني؟

ـ بقيت أحلم.. أحلام اليقظة

بقيت أفكر

ـ للتفكير منفعة..

ولكن ليس بهذا القدر.. حتى يهرب النعاس من عينيك

لكل فعل سبب يودي إلى نتيجة

كما أن الذي قليله مضرّ فكثيره مضر أكثر

الفلاسفة قالوا:

الإنسان حيوان عاقل

ما الذي أطار النوم من عينيك؟

معلم الديانة قال لنا في الدرس

إذا مات المسلمون في الحرب

يكونون شهداء

وعندما يذهب الشهداء إلى الجنة

يذهب الأعداء إلى جهنم
ـ هكذا بالتأكيد
وإذا جرح ولم يمت.. يكون غازياً
وإذا مات يكون شهيداً
ـ يعني إذا كان الإنسان مسلماً
فهو رابح إن مات أم لم يمت
ـ وما الشبهة التي فيها
ـ هذا ما فكرت به ليلة الأمس
العراقيون مسلمون والأتراك أيضاً
ـ نعم يا بني.. الحمد لله
ـ الله.. الله..
ـ وما الشيء المحير في هذا الأمر
ـ ألم تنشب حرب في الخليج
الطائرات التي انطلقت من تركيا
صبَّت حملها على رؤوس العراقيين
ولو أن الجيش التركي والعراقي تحاربا
ماذا كان سيحصل يعني؟
أي واحد سيكون شهيداً
ويذهب إلى الجنة
العراقي.. أم التركي؟

هذا ما فكرت فيه طول الليل

ـ ما هذا الكلام..؟

المسلمون لا يحاربون بعضهم

في أي زمان ومكان

ـ طيب.. العراق والكويت

العراق وإيران

كلهم مسلمون

ومات من كلا الطرفين

عشرات الألوف من الناس

أي واحد ذهب إلى الجنة؟

وأي إلى جهنم؟

ـ اخرس.. قل التوبة يا إلهي!!

لقد خلطت الأوراق في رأسي

إذا قلنا لك فكر.. ليس بهذا القدر

فلكل شيء حدوده

ألم أقل لك.. كل شيء زائد عن حده مضر

ـ ولكن عندي فضول

أي واحد سيذهب إلى الجنة؟

ـ اسكت ولك.. جحش ابن جحش

الجنة التي تتحدث عنها

ليست ملعب اينونو
الجنة.. حديقة الله
ليس لها بداية ولا نهاية
تتسع لكل المسلمين
يكفي.. أن يكونوا شهداء.. وتسيل دماؤهم
- بابا.. ولكن الإنسان
- قلت لك اسكت ولك حيوان
أبدأ من وعاء شراب أبيك ها
قلنا فكر يا بني.. وأكلنا هوى
وقدماؤنا لم يقولوا عن عبث:
«فكر.. فكر.. شغلك بيصير خرى»
قال شو: من سيدخل الجنة
اترك.. ليدخل من يدخل.. ويخرج من يخرج
الإيرانيون.؟.؟.؟.؟.
العراقيون والكويتيون
يكفي أن يكون مسلماً
- ولكن يا أبي
- قلت لك.. اخرس وإلا سأضربك ها
أعطني عقلاً يا إلهي
- طيب أي واحد سيدخل الجنة؟

ـ اسكت ولك ابني.. اسكت!
لم يبق لك سوى أن تتدخل
في شؤون الله عز وجل

○ ○ ○

قال: كيف أكتب

استلمت رسالة.. الرسالة ليست موجهة لي.. ولكنها أرسلت إلى مجموعة كبيرة من الكتاب. تبدأ هكذا:

«كما تعلمون أن القراء.. لا يعرفون شيئاً عن الكتَّاب غير أعمالهم وآثارهم.. ولذا فإنهم يحبون معرفة كل شيء عنهم».

الشخص الذي كتب لي الرسالة يقول «كما تعلم».. حقيقة.. أنني لا أعرف حقيقة ما إذا كان القراء يريدون معرفة المزيد عن الكتاب.. غير كتبهم وقصصهم..

لنقرأ الرسالة:

«وأكثر شيء يريد أن يعرفه القراء خاصة، كيف يكتب الكتاب كتبهم.. وفي أي جو؟»

ها.. أصبحت كأنني أفهم بعض الشيء عما يحب أن يعرفه القراء.. هذا صحيح.. القراء يريدون معرفة ذلك.. لأنهم ينتظرون مواقف غير طبيعية.. أشياء فوق العادة.. مفاجآت.. محيِّرة.. والأصح.. ما يريد أن يكون الكاتب نفسه على الأقل.

لنتحول الآن إلى الرسالة ولنجب على الأسئلة الموجهة لنا:

سؤال:

- في أي جو تكتبون؟

جواب:

- هذا الجو يتغير وفق الكتابة التي سأكتبها.. إذا كنت سأكتب في

مسألة مهمة للغاية أو كتابة جدية.. أغلق باب ونافذة غرفتي على أكمل وجه. وأضع جمجمة على طاولتي..! وأسلط المصباح على تلك الجمجمة بحيث ينيرها جيداً. وكي أفكر عميقاً بالموضوع الذي سأكتبه يجب أن يسيطر على المنزل.. صمت الأموات.. مع هذا الصمت العميق.. يجب أن تصدح بعض الموسيقى الخفيفة دون توقف.. لبراهمس.. لباخ.. وبيتهوفن.. يعني الثلاثة الكبار الذين تبدأ أسماؤهم بحرف الباء.. ولكي أملك الدقة الكاملة في التفكير، يجب أن تكون درجة حرارة الغرفة ست عشرة درجة.. ولهذا السبب لا أستطيع الكتابة في الأمور الجدية خلال أشهر الصيف.. وإذا كتبت تتحول كتاباتي إلى كتابات ساخرة.

حتى القضايا والمسائل الوطنية أكتبها ضمن هذه الأجواء.. ولكن كي تكون كتابتي وطنية.. يجب أن يكون على طاولتي عرق بارد.. وبعض من العلكة أو الموالح.. وكلما صَعُبَتْ عليَّ الكتابة آخذ جرعة من العرق.. فيعود عقلي إلى مضمون الموضوع.. ولكي تصل كتابتي إلى مستوى الكتابات العالمية.. أقوم بمزج الويسكي مع الفودكا.. وأسمي هذه الخلطة بـ (كواغيزستان).. وأتجرعها.

ولكي أكتب كتابات رومانسية.. أصعد إلى أحد الفنادق الجبلية أو أحد الفنادق القريبة من البحر.. ووجودي في مثل هذه الفنادق ليس طلباً للهدوء.. ولكن لمراقبة الموجودين في غرف الفندق من خلال ثقب الباب.. وبهذا أكون قد وصلت إلى غايتي في طلب الهدوء.. ومعاناة الحياة الاجتماعية ومعايشتها عن كثب.. وأنفعل بالمناظر التي أراها هناك.. فالكاتب هو رجل الانفعالات والعواطف والأحاسيس.

أما كتاباتي الساخرة..فأحب أن أكتبها في الحمامات أو قريباً من بازار الحيوانات.. أي في أماكن كثيرة الضوضاء.

ولكي تزداد شهيتي للكتابة.. أذهب إلى بعض الملاهي وأماكن

القمار.. أو إلى بعض المقاهي.. أي أن أعيش حياة الثرثرة لبضعة أيام.. دون أن أخبر أحداً وذلك لعدة مرات في العام.

وهكذا إذا شرحت مثل هذه الكلمات الفارغة.. ربما أرضي شيئاً من فضول القارئ. ولو قلت لا أستطيع الكتابة إذا لم أكن في حضن فتاة شقراء جميلة.. لا.. أبداً.. سيفهمون أن هذا ليس إلا كذباً.. ولن يصدقوني.. ولكن لو كتبه أحد غيري بالسر.. فالقراء سيجدونه غريباً.. القارئ بشكل عام عنده ميل واعتقاد أن الكتاب والفنانين بشكل عام.. إما نصف مجانين، أو مجانين على أكمل وجه. وحقيقة فإن بعض الفنانين.. يحاولون جذب انتباه القارئ عن طريق الجنون أو الشذوذ في حركاتهم وتنقلاتهم.

أعرف شاعراً.. كان قد استأجر مكتباً خاصاً.. رفيع المستوى يذكِّر المرء بمكاتب رجال الأعمال.. يضع على طاولته مجموعة كبيرة من زجاجات الخمر نصف الممتلئة. كي يوحي للقادم إليه بأنه يشرب على الدوام.. مع أنه كان لا يشرب أبداً.. ولكن عندما يفتح الباب.. يحمل قدح الشراب بيده.

لو أن شاعراً قال أنه كتب أجمل أشعاره وهو على رأس برج بيازيد وفي حالة نفسية وكآبة كبيرتين.. وكان يريد أن يرمي بنفسه من أعلى البرج كي يموت.. لوجدت القراء يهتمون بشعر هذا الشاعر لأنه قال هذه الكلمات.

وأعتقد أن كلاً من الرسامين المشهورين في العالم وهم (فان كوخ وغوغان وتولوس ولوترك) لا تنبثق شهرتهم من فنهم فقط.. بل إن جنونهم وعجزهم سبق فنهم كثيراً.

وهناك أكثر من خمسين مشهوراً في الفن والرسم والفلسفة والأدب.. كانوا باعتقاد الناس من أنصاف العقلاء.

ومع أن هناك كثير من الناس لم يقرؤوا لأولئك المشهورين.. ولكن لديهم معرفة بمنابت شخصياتهم الشاذة.. إن كان هذا الشذوذ سلبياً أم إيجابياً.

وهناك كتاب كثيرون يثيرون الفضول لدى القارئ في بعض حركاتهم وأفعالهم.. إذا كانت قدرتهم في الأدب والفن عالية. وخلاف ذلك ليس إلا نوعاً من أكل الهوى لا غير. ربما أفعالهم هذه قد تساعد على ظهور قيمتهم في بعض الأحيان.. أما إذا كانت آثارهم دون قيمة تذكر.. فيكونون تافهين ومعرضين للسخرية.

والشاعر (أورهان والي).. كان قد أطلق لحيته.. لهذا فقط (كانت هذه العادة غير مألوفة ولا معروفة في تركيا آنذاك.. عادة تطويل اللحية لدى الشباب) تستطيعون القول أن تصرفه لم يكن إلا نوعاً من التمرد على العادات وسلوك المجتمع.. في إحدى الليالي ظل (أورهان والي) يفكر حتى الصباح ماذا يفعل لينشر أشعاره وكتبه بين الناس.. وكان في تلك الليلة ضيفاً على الرسام (هاشمت).. وفي نهاية المطاف قرر أن يمطر أشعاره من الجو عبر طائرة يركبها.. ولكن كيف سيستأجر هذه الطائرة؟ ومن أين سيأتي بالمال اللازم؟

بعد يومين أو ثلاثة.. كانت الصحف والمجلات قد بدأت تسخر من الشاعر وديوانه آنذاك المسمى (لو صرت سمكة في زجاجة العرق). بعد هذه السخريات اللاذعة.. لم تعد هناك حاجة لا للطائرة ولا لرمي الأشعار فوق استانبول.. السخريات لم تكن من أجل الطائرة فقط.. ولكنها فعلت فعلها وأكثر.. ولو لم يكن أورهان والي شاعراً حقيقياً لبقي مادة للسخرية الدائمة.. ولكن بعد فترة قصيرة أصبح من كانوا يسخرون من شعر أورهان والي عرضة للسخرية والانتقاد.

سأحاول الآن إعطاء القارئ العربي لمحة موجزة عن حياة هذا الشاعر التركي العظيم.. الذي حطم مقاليد الشعر والأوزان في الشعر التركي المعاصر.

ولد في عام ١٩١٤ ومات في ١٤تشرين الثاني عام ١٩٥٠. درس في جامعة استانبول قسم الفلسفة.. ولم يكملها. في عام ١٩٣٥ عمل

موظفاً في دائرة البريد والبرق والهاتف في أنقرة. في عام ١٩٤٥ أصدر مجلة /ييراق/ (يعني الورقة).. مات من جراء نزيف في الدماغ.. ونشر شعره في مجلة فارليق.. مع شاعرين آخرين آنذاك وهما (أوكتاي رفعت) و(مليح جودت).. من آثاره: ديوان (الغريب) و(الملحمة).. وله عدة أعمال أخرى.. سأورد الآن بعض المقاطع الصغيرة من أشعاره.. وهذه قصيدة صغيرة بعنوان: (مؤلفاتي العظيمة)

ليس من عادتي أن أكتب الشعر
في الحالات التي أسبح فيها مع الحب والغرام
مع أنني كتبت أجمل أشعاري
في الوقت الذي فهمت أنني أحبها كثيراً
لهذا السبب
سأقرأ لها هذا الشعر قبل كل الناس

* * *

وهذه قصيدة أخرى بعنوان (أنا أورهان والي)
أنا أورهان والي
واأسفاه..
مسكين أنت يا سليمان أفندي
مبدع البيت المشهور
سمعت أنك تريد معرفة شيء عن حياتي الخاصة
هذه هي حياتي..
قبل كل شيء أنا إنسان
يعني.. لست حيوان سيرك أو ما شابه

لي أنف وأذنان
ليس على أكمل وجه
أسكن في بيت
ولي عمل
ما من غمامة تغطي وجهي
ولا أحمل خاتم نبوة في ظهري
ولا متواضعاً كملك انكلترا
ولا أرستقراطياً كراعي الخيل الأسبق
لجلال باير (رئيس جمهورية تركيا آنذاك)
أحب السبانخ كثيراً
ولا أتراجع عن أكل الرئتين
(ليس المعلاق الأسود بل الرئة البيضاء /المترجم/)
ولا أهوى المال والجاه
والله لا أهواه
أصدقائي المقربون
هما كتابي رفعت ومليح جودت
ولي حبيبة رائعة
لن أذكر اسمها
ليجد اسمها مؤرخو الأدب والتاريخ
وأتابع بعض الأمور التافهة
المجلس الوحيد الذي ليس فيه تفاهة

مجلس الأدب والأدباء ربما لي عادات أخرى كثيرة
ليس المهم ذكرها متسلسلة
كلها تشبه بعضها
هذا هو الشاعر أورهان والي الذي ذكره عزيز نيسن

عندما رويت هذه القصة لبعض الأدباء الرومانيين في صوفيا.. ذكروا لي هذه الحادثة. قالوا إن شاعراً شاباً لم أعد أتذكر اسمه الآن.. قد أصدر عدة كتب أو دواوين.. ولكنه لم يلق أي اهتمام.. لا من القراء ولا من النقاد.. في أحد الأيام كتبت الصحف أن الشاعر الشاب قد انتحر.. عندها شمر النقاد عن سواعدهم وصاروا يمدحون الشاعر وأشعاره في الجرائد والمجلات بشكل لم يسبق له مثيل أبداً.. ولكن بعد مرور ثلاثة أشهر رآه أحد النقاد في أحد الملاهي فصعق تماماً وكاد يجن وقال: «هذه وطاوة» طيب.. لماذا يسكت النقاد وتجمد أقلامهم قبل وفاة الشاعر الأديب؟ وبما أن هذا الشاعر الروماني.. كان شاعراً حقيقياً فهو ليس مسخرة.

أعتقد أن القراء لا يريدون معرفة الجو الذي أكتب فيه على وجه الدقة. ولكن إن سألتم.. فأنا أجيبكم.. ليس هناك لا جو ولا أي شيء آخر.. ما معنى الجو..؟ ما من كاتب تركي كتب أو وصل إلى الكتابة في جو حقيقي للكتابة.

نحن مجبورون على الكتابة في أي مكان وزمان.. وقد بدأ بعض المخرجين السينمائيين يأخذون كتاب السيناريوهات إلى بعض الفنادق الهادئة لتأمين الأجواء المناسبة.. وخاصة الفنادق ذات الخمس نجوم.. يقيمون هناك أكثر من عشرين يوماً يأكلون ويشربون وينامون ويكتبون.. ويعرفون أنهم لن يقدموا الشيء الأفضل في مثل هذه الأمكنة.. وبما أن صناعة الأفلام تدر أموالاً كثيرة.. أفلا يحق للكاتب أن يعيش في هذه الدنيا الفانية لبضعة أيام يجد فيها الأمن والراحة والمال..؟ لم ينتج فيلم

واحد ذو أهمية فنية في الفنادق التي كتبت فيها السيناريوهات أو القصص.. ولو كتبت هذه السناريوهات في سرايات (دولمة بقجة) فهل فستكون أفضل من كتابتها في الفنادق؟

بشكل عام أكتب كتاباتي كلها.. في منزلي.. وفي غرفة مليئة بالكتب.. وفي كل مرة أجلس فيها للكتابة تبدأ زوجتي بالكلام قائلة:

أي كاتب تركي عنده غرفة خاصة مثلك. وتظل تنخر في رأسي حتى أطردها. وما أن أبدأ بالكتابة.. حتى يرن جرس الباب.. أنتظر وهلة عسى ولعل يفتحه غيري.. ولكي أتخلص من شدة الرنين أتحرك وأفتحه.. وإذا ببواب البناية.. وصانع البقال.. وبائع الماء والحليب والخادمة والشحاذ (المتسول).. والباعة المتجولون.. ووفود الجمعيات الخيرية الذين يجمعون المال بالإيصالات التي يحملونها..هكذا أفاجأ في كل مرة أفتح فيها الباب.. وأعود ثانية كي أجمع أفكاري لأبدأ بالكتابة.. ثم نتناول طعام الإفطار.. وأعود إلى غرفتي ثانية.

في الأيام التي لا يذهب فيها أولادي إلى المدرسة.. يبدأ الضجيج والصراخ.. أعمل جهدي كي أحدَّ من ضوضائهم وصخبهم..

يأتي بائع الصحف.. الجنايات.. الرذالات.. السفالات.. أقرأ الجريدة المشحونة بكل هذه الصفات.. تتوتر أعصابي.. مرة ثانية أحاول الكتابة.. فيأتي شخص وبعض الأحيان عدة أشخاص.. أعرفهم أو لا أعرفهم.. ربما جاءوا لطلب دين غفلناه منذ مدة طويلة.. أو للاستشارة في بعض المسائل.. يطلبون مني حلولاً لمشاكلهم.. وفي الوقت الذي لا أجد فيه مكاناً أو دار نشر لطباعة كتبي وإذا بهم يطلبون مني مساعدة لنشر كتب بعضهم.. والبعض يطلب مني الاستماع إلى أشعاره أو قصصه وخواطره.. طبعاً وفي بعض الأحيان يأتيني من يوفيني مالاً أو يقدم لي خدمة.

وفي أكثر الأحيان أجهز طعام الغداء لنفسي وأكمل وحدي.. لأن أهل

البيت يذهبون كل إلى غايته وفق هواه. بعض الظهر يأتي أشخاص لا أعرفهم وأكون على وشك أن أنساهم.. ويقولون: «على الأغلب أنت تكتب». وكأنني أقوم بأعمال أخرى، ويضيفون: «عطلناك عن شغلك».. يعرفون ذلك ويجلسون عندي مدة ساعة على الأقل. ويمضون في حال سبيلهم.. مرة أخرى يرن جرس الباب.. ومرة يبدأ الضجيج والصخب والضرب والشتم.. ثم نستقبل ونودع وهكذا حتى منتصف الليل وما بعد منتصف الليل.. أرتاح بعض الشيء.. لا شيء يعكر صفو راحتي.. ويسيطر الهدوء التام.. أتحرك وأعمل لنفسي كأساً من الشاي وأنزوي في غرفتي التي تقول زوجتي عنها: «غرفة لا يملكها غيري من كتاب تركيا».. أوهه.. وقت العمل.. الساعة الثانية.. الثالثة.. الوقت يمضي بسرعة.. عند ذلك يبدأ النعاس.

هكذا.. إذا وجدت الفرصة السانحة.. أستطيع الكتابة..

سؤال:

ـ كيف تكتبون؟

جواب:

ـ القراء عندهم فضول.. لسماع جواب عن هذا السؤال.. أقول لهم: أتعرى كما خلقني الله.. وأكتب وأنا في تلك الحالة.. العري الكامل.. وهذا الأفضل عندي أليس كذلك؟

كما كل الكتاب المشهورين.. لا أكتب.. وأنا.. أدور في غرفتي.. وأضع قدمي في الماء الساخن.. أو أكتب وأنا نائم.. متمدد..

عندما أكتب أقف على رأسي.. وأبدأ الكتابة بعد أن أعلق رجليَّ على رقبتي.. الدم يثيرني.. وبما أنني لا أشرب دم البشر.. فإنني أشرب دم الأرنب الذي وضعته في البراد.. فأنا لا أستطيع الكتابة قبل شربه.. إذا لم أشرب كأساً من الدم فعقلي لا يساعدني على الكتابة.

لو كانت الأمور حقاً هكذا.. لدهش القراء واستغربوا تصرفاتي.. مع أنني أكتب كتاباتي كأي إنسان يعيش حياته الطبيعية الاعتيادية.. ولا أذكر أنني كتبت بغير شكل على الإطلاق.. أضع الورقة أمامي.. وأحمل القلم في يدي وأبدأ الكتابة.

ومنذ أكثر من عشر سنوات تقريباً أصيبت يدي اليمنى بمرض .. جراء كثرة الكتابة.. والمسمى (كرامب الكاتب). ومع أنني أستطيع القيام بجميع الأعمال وبشكل مريح بيدي اليمنى.. إلا عند الكتابة على الآلة الكاتبة فأجد صعوبة في ذلك.

وربما سيعجب القراء أكثر عندما أقول لهم.. إنني أتربع على الكرسي أثناء كتابتي. لأنها عادة قديمة فيَّ.. فأنا أجلس هكذا منذ نعومة أظفاري في بيتنا الفقير المتواضع.. وأعتقد أن لقصر رقبتي دوراً في هذه الجلسة.. وبما أنني لا أستطيع تركيز رجلي اليمنى على الأرض براحة.. فلهذا أضعها تحتي وأجلس هكذا.

نعم.. وربما تعجبون من ذلك أيضاً.

سؤال:

- كيف تجهزون نفسكم للكتابة؟

جواب:

- انظروا.. هذا مهم جداً.. قبل أن أبدأ الكتابة.. أحس بكآبة وقلق شديدين.. أصرخ بالموجودين في المنزل.. ألبط نفسي من عصبيتي.. وأقرض أظافري ؟.؟.؟..؟ ليس أظافري فقط.. حتى القلم أقرضه وكذلك الممحاة.. وبعض الأحيان أحطم وأكسر بعض الأغراض القابلة للكسر.. إذا وصلت حالتي إلى هذا الحد.. يصرخ من في المنزل: «آمان.. جاءه الإلهام.. اسكتوا» عندها يخيم هدوء تام يلف أرجاء البيت.

روح ولك عمي.. من أين أتيت بهذه الأشياء..؟ أين..؟ يقولون أن الفنانين..

عندما يقدمون أعمالهم الفنية الرائعة.. يكونون هكذا.. بوف.. PUFF.

هل تعرفون على ماذا تحسرت؟ أن أتدلل في المنزل.. حتى ولو بشكل خفيف.. أتظاهر وكأنني غاضب من شيء ما.. فأقوم ببعض التصرفات.. ليتحملني أهل البيت ولو لخمس دقائق على الأكثر.. ولكن هيهات؟؟

يحصل عكس ذلك دائماً.. في أي وقت أجلس فيه لأكتب شيئاً أو موضوعاً مهماً.. فتبدأ المشاكل.. وأرى من أريد أن أتدلل عليهم.. أنهم يتدللون علي.

سؤال:

- هل الموضوع هو الذي يجدك.. أم أنت تفتش عنه؟

جواب:

- القراء الفضوليون.. كيف ينتظرون جواب هذا السؤال يا ترى؟

إذا قلت: يأتي الموضوع، ويفتح الباب قائلاً: «لقد جئت» هل يعجبهم هذا الكلام يا ترى؟ وهل أقول لهم: إنني أدور في البراري والقفار.. مثل الدراويش الحمقى.. باحثاً عن موضوع معين؟ هذا صحيح.. ربما يحصل الشيئان.. وهناك مئات المواضيع بل الآلاف.. المكدسة في درج مكتبي.. لو بقيت أعمل مئات الأعوام لن أستطيع أن أنهيها إطلاقاً.. وأكبر عزاء للكاتب هو بقاء مواضيعه.. دون عمل.. أو بقاء نصف كتاباته، لأن غيره لا يستطيع أن يكملها.

أنا لا أكتب المواضيع التي تأتي لوحدها.. ولا المواضيع التي بحثت عنها ووجدتها.. فالعمل رهن بالوقت والدخل المادي.. أنا أعمل هكذا.. أجلس على طاولتي أفكر كيف أجلب أكبر مبلغ من المال يكفيني في أصعب ظروف الحياة القاهرة...

سؤال:

ـ هل يجهز الكاتب الجو المساعد للكتابة أم ينتظر مجيء ذلك الجو الملائم لها؟

جواب:

ـ أنتظر بزوغ القمر في الليل.. كي أبدأ بالكتابة.. لأن الوحوش تستيقظ في هذه اللحظات الميتة من الليل. والذين يرونني في تلك الساعات يقولون أن شكل وجهي يتغير كلياً.. حتى إن يدي تتحولان إلى مخالب.. يعني.. الإنسان في النهار يبقى إنساناً وفي الليل يتحول إلى وحش.

وأي كاتب تركي.. له حق اختيار زمن الكتابة؟ لا فرق عندي بين الليل والنهار.. عندما تحلُّ الساعة المناسبة، أبدأ بالكتابة.

سؤال:

ـ إذا كان ظهور العمل أو الأثر.. مثل ولادة.. ماذا تفعلون في عملية المخاض والولادة تلك؟

جواب:

ـ لا أحد يدري.. بعض الأحيان.. ألد في التاسعة.. وبعض الأحيان يفلت المولود.. عندما يرى النور.. مسرعاً نحو الخارج.. تراني أصبحت عقيماً.. أو عاقراً.. لا أستطيع الولادة.. هذه التسمية في حياتي كلها ما أحببتها. إذا كنتم تسمون ظهور كتاب بالولادة.. ماذا أفعل يعني؟ أعمل كي ألد.. وهذا ليس عملية ولادة قطعاً .. ولكن إن جاء المخاض في ظروف قاهرة جداً.. يجب أن تلد شئت أم أبيت.. إن متطلبات الحياة اليومية والقاسية تجعل الإنسان يلد عنوة.. حتى وتجعله يلد بيوضاً أحياناً.

○ ○ ○

ألا يوجد حمير في بلدكم؟

دخل المقهى.. واضعاً يده على وجنته وكأن ضرسه يؤلمه.. يهز رأسه يميناً وشمالاً.. يضرب خده.. وهو يردد دائماً:

ـ توه.. تبهدلنا.. والله تبهدلنا.

ومع إنه رجل من مستوى عال من الرصانة والمكانة. فقد بدأ منذ دخوله الباب يردد:

ـ تبهدلنا.. والله تبهدلنا.

عجبت جداً من تصرفاته هذه.. وهو يضرب نفسه.. بين حين وآخر. فقبل أن يسلِّم قلت له:

ـ أهلاً وسهلاً.. تفضلوا.. اجلس بالله عليك.

ـ تبهدلنا والله تبهدلنا..

ـ كيف حالك؟

ـ كيف يجب أن يكون يعني..؟ كما ترى تبهدلنا.. توه..

ظننت أن مصيبة ما قد حلَّت به، وربما كانت من جهة عائلته.

ـ أصبحنا في أسفل السافلين.. لا نساوي قرشين.. نعم قرشين.

ـ لماذا..؟ ماذا حصل؟

ـ وماذا سيحصل أكثر مما حصل.. باعوا للرجل حماراً جرباً بألفين وخمسمائة ليرة.

رجعت إلى الخلف.. وتمعنت وجهه بدقة.. هل جن الرجل يا ترى؟!

لن أخفي عليكم ما خشيته.. قلت له خجلاً وكأنني أطلب زوجتي.

ـ هل تشرب فنجاناً من القهوة؟

قال:

ـ اترك القهوة الآن.. تبهدلنا.. هل يساوي حمار جربان دون حدوة مبلغ ألفين وخمسمائة ليرة؟

ـ بما أنني لم أبع حماراً ولم أشتره.. لا أعرف.

ـ ولك روحي.. أنا الآخر لست بائع الحمير.. ولكن أعرف أن سعر أي حمار لا يساوي هذا المبلغ.

ـ إن أعصابك متوترة جداً.

ـ إن لم تتوتر أعصابي.. فأعصاب من يجب أن تتوتر؟ هل رأيت شخصياً حماراً يباع بألفين وخمسمائة ليرة؟

ـ مضى عليَّ عشرون عاماً لم أشاهد حماراً واحداً.

ولك أخي أنا أسألك عن بيع حمار بألفين وخمسمائة ليرة.

ـ والله لا أدري ماذا أقول لك.. إن كان حماراً مدرباً.. ربما يساوي هذا المبلغ.

ـ وأي تدريب تقصده يا روحي.. يا أفندي.. هذا حمار.. طبعاً ليس خطيباً.. حمار بكل معنى الكلمة.. وفوق ذلك كله.. عجوز وجربان.. باعوه بألفين وخمسمائة ليرة.. والأسوأ من هذا كله.. كان لي دوراً في بيعه.

ـ يا يا يا.. وكيف حصل ذلك؟

ـ جئت إلى هنا كي أقص عليك ذلك. وكما تعلم.. ذهبنا أنا وزوجتي إلى أمريكا بدعوة من جامعة أمريكية.. وبقينا هناك أكثر من عام.

ـ أعرف ذلك.

ـ هناك في أمريكا.. تعرفت إلى بروفيسور أمريكي.. وأصبحنا أصدقاء.. ساعدني كثيراً.. كان له فضل كثير علي هناك. وعندما عدت إلى تركيا.. بقينا نتراسل.. إنه صديق لتركيا.. رجل يحب الأتراك كثيراً.. أرسل لي رسالة يرجوني فيها مساعدة أحد أصدقائه.. وهو خبير في الآثار والأنتيكات.. والسجاد وما شابه ذلك.. ويسألني إذا كنت أستطيع أن مساعدة صديقه هذا أثناء زيارته لتركيا.

وأجبت على رسالته.. وقلت له بأنني على أتم الاستعداد كي أقدم كل المساعدات الممكنة لصديقه.. إذا جاء إلى تركيا..

أثناء عطلة الجامعات الصيفية.. وبما أن الخبير في السجاد والآثار.. سيذهب إلى الهند وإيران قبل مجيئه إلى تركيا.. فقد وصل إلى تركيا.. كما أحببت وتمنيت ومناسباً لي.

جاء خبير السجاد في تموز.. وبما أنه أخذ عنواني ورقم هاتفي من صديقي الأمريكي البروفيسور.. فقد اتصل بي من الفندق الذي نزل فيه.. ذهبت إليه. رجل كالمارد.. أمريكي من أصل ألماني.. وربما عنده أصل يهودي.. وربما ألماني يهودي.. أصبح أمريكياً فيما بعد.

أحضر معه بعض السجاجيد والبسط والخروج.. وضعها في أربع حقائب كبيرة.. فتحها أمامي وبدأ بعرضها.. كانت عبارة عن قطع أو نتف صغيرة من السجاد والبسط والخروج.. القديمة جداً.. وبدا سعيداً للغاية بهذه القطع التي جمعها.. وكان يقول: أن هذه الأغراض هي بمثابة كنز. ومن بينها قطعة سجاد بعرض ثلاثة أشبار وطول عشرة.. وقال متباهياً إن هذه القطعة تساوي على أقل تقدير ثلاثين ألف دولار.. وأنه اشتراها من قروي إيراني بدولار واحد.. ومع ذلك.. صار القروي الإيراني يدعو له بعد أن قبض الدولار.. وفرح كثيراً.

سألته عن سبب ارتفاع سعر قطعة السجاد هذه.. فقال:

ـ لأن في كل سنتيمتر منه أكثر من ثمانين عقدة.. إنها شيء رائع إلى أبعد الحدود.. وبدأ بسرد المعلومات بشهية عن السجاد الذي بين يديه.. قال ثمة سجاد واحد في العالم.. في كل سنتيمتر واحد منه مائة عقدة.. لكنه لا يدري بأي متحف هو .. وأنه سجاد جدار عادي.

أراني قطعة لباد وقال:

ـ اشتريت هذه بخمسين سنتاً.

وكان يضحك بخبث معرباً عن غبطته وسعادته.. وقال:

ـ هذا اللباد يساوي على الأقل خمسة آلاف دولار.

سألته:

ـ كيف تشتري هذه القطع الثمينة والغالية بأسعار رخيصة؟

ـ قال: أن له أكثر من أربعين عاماً وهو يعمل في هذا المجال.

وأضاف:

ـ لهذا العمل خصوصيته. وطرائق البحث عنه تحتاج إلى خبرة عالية كما وله احتياجاته.

ثم شرح لي عدة اعتبارات ومهارات أدهشتني.. أراني ألبوماً للسجاد.. وقال أنه نشر ثلاثة كتب حوله.. وأنه يملك معرضاً ثميناً للسجاد انتقى مواده من عدة معارض خاصة في العالم.

خرجنا بجولة في الأناضول.. زرناها.. ولاية ولاية.. ومنطقة منطقة.. كان يصور السجاد الموجود في الجوامع.. يركز على ألوانه وخصوصياته طبعاً بالنسبة له. واشترى من عدة أماكن بعض السجاد والبسط واللباد.. والخروج. وقال أن الأشياء التي اشتراها هنا لا تقارن بالتي اشتراها من الهند وأفغانستان وإيران.. وتركمانستان الصينية.. وقال:

ـ في تركيا سجاد قيم جداً.. ولكننا لم نحظ به ولم نر منه واحداً حتى الآن.

وصلنا إلى منطقة فيها حفريات أثرية.. حيث أقام عالما آثار ألماني وأمريكي معسكرين.. كل بمفرده.. يبعدان عن بعضهما مسافة عشرة كيلومترات.. كانا يحفران في الأرض رأساً على عقب.. ويمهدان الجبال والهضاب.. لقد صغر حجمها والتراب لنعومته أصبح كالقطن المندوف.

كانت مساحة الأرض المحفورة.. تعادل مساحة قرية صغيرة.. ثمة خيام نصبت بكثرة. وقال أن مدناً كثيرة وحضارات طمرتها الأثرية وتراكمت فوق بعضها البعض قبل ميلاد المسيح بعشرة قرون.. وأنهم اكتشفوا بداخلها عدة مدن.. وكثيراً من دور العبادة والقصور والقبور.

وبما أن هذه المنطقة مهمة جداً سياحياً وأثرياً.. فقد كانت سيارات السواح تعربد هنا وهناك.. وكنا نلتقي بعدد منهم كل كيلومترين على الأقل.

وكان القرويون يتوافدون بكثرة إلى تلك المنطقة الأثرية.. ويتجمهرون هنا وهناك.. كانوا يبيعون السائحين بعض القطع التي أخرجوها من تحت الأرض كالفخار وقطع البلور وما شابه.. والسائحون يتهافتون على شراء تلك الآثار.. حتى الأطفال القرويون اصطفوا على طريق قراهم يبيعون السائحين قطع المزهريات المكسرة والأحجار المرصعة بالرسوم والكتابات.. وبعض الحلقات.. ويتجهون بقوة نحو السائحين وهم يصرخون: «فان دالي» دولار واحد.. «آتو دالير».. يعني دولارين.

قلت في نفسي.. .. بما أنني جئت إلى هذه المنطقة.. يجب أن أشتري شيئاً يبقى للذكرى.. عندما اقتربت من طفلة عمرها عشر سنوات وإلى جانبها ولد صغير.. كانت الفتاة تحمل في يدها قبضة مزهرية مكسورة..

أما الغلام فكان يحمل حجرة زرقاء اللون على شكل رأس إنسان. قلت ربما تكون هذه الحجرة حجرة خاتم، فسألتهما:

ـ بكم هذه الأشياء يا أولادي؟

طلبت الفتاة أربعين ليرة لقبضة المزهرية، أما الولد فطلب خمس عشرة ليرة.. للحجرة الزرقاء التي تشبه رأس الإنسان، فقلت لهما كي أشتريها بسعر أقل:

ـ إنها غالية.

تكلم الغلام والفتاة كراشدين.. ودافعا عن أغراضهما.. أين الغلاء يا سيدي.. إن والدهما عمل أياماً عديدة.. في حفر الأرض.. حتى انتشل هذه الأغراض من عمق خمسة أمتار.

قررت أن أشتري القطع منهما.. إلا أن صديقي الأمريكي خبير السجاد قال لي: أن هذه الأشياء ليس فيها أية قيمة أثرية أو تاريخية.. وأنه من خلال جولاته في الشرق.. شاهد كثيراً من هذه القطع:

ـ الأمور هناك كما هي هنا تماماً.. حيث يعمد القرويون في مناطق الحفر.. على قطع الطريق أمام السواح.. ويعرضون عليهم ما يحملونه.. رجالاً ونساءً.

وحسب ما قاله صديقي، إن هؤلاء القرويين الماكرين يعمدون إلى صناعة وتقليد أحجار وفخار.. وكأنها آثار حقيقية.. حتى خبراء الآثار أنفسهم ينخدعون ويشترون القطع بأسعار خيالية.. ويحكى أن راعياً باع كلبه.. بعد أن حلق له وبره.. على أنه (مومياء الملك).. وكان يضحك بمكر وهو يقص لي هذه الأحداث. وأضاف أنه لا يمكن أن نعتبر هذه القطع التي يبيعها القرويون على أنها تقليد.. لأن فيها بعض النسمات الفنية الصغيرة.. مثلاً صناعة القطعة الحجرية الزرقاء التي كان يحملها الولد.. ليست سهلة على الإطلاق.

كان الجو حاراً جداً، كنا نسير بسيارة الجيب التي استأجرناها.. وعلى جانب الطريق رأينا عدة أشجار حور.. وبئر ماء.. قلنا سنتناول طعامنا في ظل تلك الأشجار. وما أن اقتربنا قليلاً فإذا بعجوز قروي ينام تحت الشجرة.. وحماره مربوط على بعد عدة أمتار منه..

سلمنا عليه.. وبدأ بالحديث معه. كنت أترجم كلمات العجوز القروي إلى الإنكليزية:

ـ ما أهم الغلال الزراعية في هذه القرى؟

ـ لا نزرع شيئاً على الإطلاق.. في الماضي كنا نزرع الحبوب ونحصدها، ولكن منذ أن بدأت هذه الحفريات.. قبل عشرين عاماً تقريباً.. اعتاد القرويون الكسل والتنبلة.. وصاروا لا يزرعون شيئاً.

قال الأمريكي:

ـ تماماً مثل باقي المناطق التي تشبه هذه المنطقة.

سألت الرجل العجوز:

ـ طيب كيف يعيش القرويون هنا..؟

منذ أن اعتادوا على حفر الأرض.. واستخراج الأحجار وقطع الفخار منها.. صار كل شخص يحفر الأرض ويستخرج بعض القطع.. ثم يبيعها للأجانب.

قال الأمريكي:

ـ تماماً كما في باقي المناطق.

قال القروي:

ـ أبناء هذه القرى أناس حقيرون ومنحطون جداً.. باعوا كنوز هذا البلد للأجانب بأسعار رخيصة جداً.. ظهرت أعمدة حجرية كثيرة وقبور رائعة.. لم نبعها بأسعارها الحقيقية.. لأننا لم نعرف قيمتها الحقيقية.. ولو

سارت الأمور كما نشتهي لكنا عمرنا مثل تركيا عشر تركيات.. والأجنبي الذي معك وغيره.. من هم يعني..؟ كلهم لصوص.. سرقوا كل ما اكتشف تحت الأرض.. وهربوه إلى بلادهم وعمروا به مدناً كبيرة.

بعضهم.. أخرجوا الآثار بأيديهم.. وبعضهم خدعوا القرويين وأخذوا الآثار من أيديهم.

قال الأمريكي:

ـ تماماً كما حدث في باقي المناطق الأثرية.

قال القروي:

ـ الآن لم يبق شيء تحت الأرض ليخرجوه.. (حتى وسخ الإنسان).. سوى النذر اليسير.. فالحكومة فتحت عينيها تماماً.. ولا تسمح لأحد بأن يمس شيئاً.. وإذا كان هذا الأجنبي يسرق الآن.. فإنه يسرق الحكومة.. فالحكومة تبيع الآثار بأسعار جيدة .

قال الأمريكي:

ـ نعم.. كما حلَّ بالمناطق الأخرى.

ـ طيب.. كيف يعيش القرويون الآن..؟

ـ في هذه المنطقة أكثر من ست قرى.. إن دخلت بيوتها.. لا تجد فيها.. لا بسطاً ولا قماشاً.. لا أباريق فخارية ولا صحون.. البيوت فارغة تماماً.

ـ ولماذا..؟

ـ ولماذا ؟؟.. لأنهم يبيعونها للسياح.. حولوا كل شيء في بيوتهم إلى أثريات.. يطمرون أغراضهم تحت التراب.. حتى تتعفن وتصدأ.. ثم يخرجونها ويبيعونها للسياح.. لقد فَسُدَت أخلاق الناس هنا يا سيدي. قبل أيام رأيت ولداً صغيراً.. أقصر من ساقي يتعلق برقبة حماري.. يريد

سرقة الخرزات.. سيسرقها ويطمرها تحت التراب.. هل فهمت..؟ ثم يخرجها ويبيعها للآخرين على أنها أثرية. حتى الفتيات اللواتي بلغن سن الزواج أصبحن باعة أثريات.. كل واحدة تحمل حجرة في يدها.. تنحتها وتحولها إلى أشكال عديدة جميلة.. تصور يا سيدي.. يحولون نضوة الحمار إلى ميداليات وعملات قديمة.

قال الأمريكي:

ـ ألم أقل لك ذلك..؟ باقي المناطق تماماً هكذا.

قلت للعجوز القروي:

ـ وأنت كيف تعيش..؟ ماذا تعمل؟

قال:

ـ أنا أبيع الحمير وأشتريها.

قال ذلك وتناول سطلاً وملأه بالماء.. وسقى حماره الذي كان على بعد أمتار منا. عندما كان الحمار يشرب الماء انطلق الأمريكي فجأة.. واتجه صوب الحمار.. أما أنا والقروي فكنا نتحدث.

ـ هل تستطيع العيش من تجارة الحمير؟

ـ الحمد لله.. منذ خمس سنوات وأنا أمارس هذه التجارة.. وأعيش منها ألف شكر لله تعالى.

ـ كم تربح مثلاً؟

ـ لا أحد يدري.. حسب الحمار.

ـ كم من الوقت تبقى.. حتى تبيع حماراً؟

ـ لا أحد يدري.. بعض الأحيان يمر شهر وخمسة شهور ولا أستطيع أن أبيع حماراً واحداً. وبعض الأحيان تبيع في اليوم الواحد خمسة حمير.

جاء الأمريكي.. واقترب مني.. كان في حالة حماس شديد.. وقال:

ـ آمان.. بالله.. هناك سجادة صغيرة على ظهر الحمار.. هل رأيتها؟

بما أن الأمريكي كان يتحدث بالإنكليزية.. فالقروي لم يفهم شيئاً.. وبالفعل على ظهر الحمار ثمة بساط قديم ملوث بالأوحال من جميع أطرافه..

سألته:

ـ ما هذا البساط القذر الذي على ظهر الحمار؟

قال: آمان.. إنه قطعة قيمة جداً.. منذ وقت طويل وأنا أدقق فيه.. الألوان فيه رائعة.. والحياكة كذلك. إنه أثر فوق العادة. وفي كل سنتيمتر مربع واحد أكثر من مائة وعشرين عقدة.. إنه قطعة لم يرها أحد من قبل.. وليس على وجه الخليقة ما يضاهيها.

قلت:

ـ هل ستشتريها؟

قال:

ـ نعم.. ولكن انتبه بعض الشيء كي لا يفهم القروي أنني سأشتري البساط منه.. أنا أعرفهم جيداً.. لو حاولت شراء (البابوج) القديم الذي ينتعلونه.. سيخلعونه ويقولون.. إن هذا له قيمة.. إذن هو أثري.. ويطلبون المبالغ الطائلة. وهذا خارج عن إرادتهم.. طوال حياتهم.. عيونهم لا تشبع أبداً. يرفعون السعر دائماً.. لهذا السبب.. لا تدع القروي يفهم ذلك.

في هذه الأثناء قال القروي:

ـ ماذا يقول هذا الكافر.. فانك فينك..؟

قلت:

ـ لا شيء.. يقول أنه أحب هذه المناطق.

ـ وماذا فيها حتى يحبها المرء..؟ كما ترى هضاب جرداء.. أراض كلسية..؟

ـ كما قلت لك.. عندي طرق وأساليب عديدة لشراء الأغراض بسعر رخيص سأطبق واحداً منها هنا.

ـ كيف؟

ـ لن نطالب بالبساط.. بل سنشتري الحمار.. وبما أن هذا القروي لا يعرف قيمة البساط.. فسيتركه على ظهر الحمار.. وبعد قليل.. نترك الحمار.. ونأخذ البساط فقط.. والآن قل له إنني أريد شراء الحمار.

قلت للقروي:

ـ كنت تبيع الحمير أليس كذلك؟

ـ هي.. أبيع الحمير.

ـ مثلاً هذا الحمار بكم تبيعه؟

ـ على حسب الشاري.

ـ لو أردنا شراءه..

ضحك وقال:

ـ هل تسخر مني..؟ سيد مثلك ماذا يفعل بهذا الحمار؟

ـ وماذا يهمك في هذا الأمر..؟ نحن سنشتري الحمار.. كم تريد ثمناً له؟

ـ ألم أقل لك حسب الشاري.. هل أنت ستأخذ الحمار أم هذا الكافر؟

ـ هو الذي سيشتريه.

ـ من أي ملة هذا الرجل؟

ـ إنه أمريكي.

ـ هييم م م م.. لا نعتبره غريباً.. بل هو محسوب علينا.. ولك عمي هذا الحمار عجوز وضعيف.. قل له إن الحمار لا يفيده بشيء.

قلت ذلك للأمريكي، قال:

ـ آمان رائع جداً.. إذن سيبيعه بسعر بخس.

ـ ليكن ما يكون.. هو راض عن الحمار.

ـ والله سيكون عيباً.. أخشى أن يذهب إلى بلده ويقول إن الأتراك خدعوه و(بعصوه).

قلت للأمريكي ذلك:

ـ القروي التركي.. إنسان صاف.. وطيب القلب ولا يغش. لو كان الأمر في مكان آخر لباعوه على الفور.. وبما أنه إنسان طيب بهذا المقدار فسأعطيه أموالاً كثيرة.

قلت للقروي:

ـ الأمريكي يريد شراء الحمار.

ـ كلامك جميل يا سيدي.. ولكن هذا الحمار سيموت قبل أن يصل إلى أمريكا.. ثم إنه حمار مصاب بالجرب.. الذي انتشر في سائر أنحاء جسمه.

ـ وماذا يهمك ولك روحي.. الرجل يريد الحمار.

ـ الله.. الله.. ولك عمي.. هذا الحمار ليس أنثى مغنجة.. حتى يستفيد منها.. ماذا سيفعل بهذا الحمار الجربان العجوز؟

ـ وما دخلك فيه..؟ أنت تعرف المال الذي ستأخذه فقط.. الآن بكم تريد أن تبيعه؟

ـ صار عندي فضول كثير.. اسأل الأمريكي هذا.. ألا يوجد حمير في بلدهم..؟

ـ إنه يسأل: ألا يوجد حمير في بلدكم؟

فكر الأمريكي بعض الوقت.. ثم قال:

ـ نعم يوجد حمير.. ولكن لا يوجد مثل هذا الحمار.

قلت للقروي كلام الأمريكي..

ـ هيم م م م م.. إذن فالحمار الأمريكي لا يعجبه.. فهو يريد حماراً تركياً.. إيه.. ماذا سنفعل.. أصبح الذنب ذنبه وارتفع عني.. أنا ذكرت لكم عيوبه ونواقصه. ومن غير المعقول أن نكسر بخاطر هذا الأجنبي من أجل حمار جربان.. لنبعه..

ـ كم تريد؟

ـ من أجل خاطرك عشرة آلاف.

ـ ماذا..؟! أنت مجنون ولك عمي.. هل ضيعت عقلك..؟ أحسن حصان عربي أصيل بمئتي ألف ليرة.

ـ إذن.. ماذا يريد أن يفعل بالحمار..؟ ليشتري حصاناً.. خالصاً.

عندما ذكرت للأمريكي ذلك قال:

ـ ألم أقل لك..؟ أنه لو تقدمت لشراء أي شيء يكون تصرفهم هكذا.. يطلبون الكثير قائلين: لقد ارتفعت أسعار الحمير.. ولو طلبنا منه البساط لطلب منا مائة ألف ليرة.. أنا أستطيع أن أدفع له عشرة آلاف ليرة.. ولكن إذا رضيت.. سيطلب الخمسين ألفاً.. لذلك يجب أن نساومه.

قلت للقروي:

ـ قل الصحيح.. بكم اشتريت هذا الحمار؟

ـ أنا لا أكذب أبداً.. قبل قليل توضأت.. ولن أقول الكذب من أجل منفعة دنيوية.. أنا اشتريت هذا الحمار بخمس ليرات.. كي أسلخ جلده..

وأستفيد منه.. بعدد من (البوابيج).. حتماً سيموت غداً أو بعد غد.. سأسلخ جلده.. ولا يستفاد من شيء آخر فيه.

- العدل.. العدل ولك عمي.. كيف تبيع حماراً بعشرة آلاف ليرة واشتريته بخمس ليرات.

- ولك روحي.. أنا لم أعرض عليكم بيع الحمار.. بل أنتم الذين طلبتموه.. قلت: حمار عجوز. الرجل رضي به. قلت: جربان.. رضي أيضاً.. قلت: ليس هو بأنثى.. فطالب به.. قلت: سيموت عند الصباح.. ويقول: نعم. ها كدت أنسى.. هذا الحمار يعرج من رجله الخلفية.. ليكن عندكم علم.

- ليكن..

- هل رأيت..؟ إذن هذا الحمار له قيمة وأهمية ما.. الشيء الذي لم أفهمه.. لماذا يريد الأمريكي هذا الحمار العجوز الجربان، الأعرج، المهزوز، الذكر.. هلا أجبتني؟ عشرة آلاف.. أقل من هذا المبلغ لا أرضى.. ولن أعطيه.

قلت للأمريكي:

- إنه لا ينزل من السعر أبداً.. لنعطه العشرة آلاف.

بقينا ساعتين.. ونحن في جدال مع القروي.. نتركه.. نمشي.. وكأننا غيرنا قرارنا.. ولكنه لا يرعوي.. ولا يهتم.. رجعنا إليه.. قال:

- كنت أعرف أنكم سترجعون..!

قلت:

- وكيف عرفت ذلك؟

- وكيف لا أعرف.. وجدتم حماراً بكل هذه المواصفات.. أمن المعقول.. أن تتركوه وتمشون هكذا..؟!!

طلبت من سائق الجيب أن يسوق السيارة ويبتعد من هناك.. وينتظرنا في أسفل الطريق.. لأننا سنترك الحمار هناك ونركب السيارة.

المهم يا سيدي.. بعد أخذ ورد ومناقشات.. اتفقنا أن نشتري الحمار بمبلغ ألفين وخمسمائة ليرة.. فما كان من القروي إلا أن سحب البساط من على ظهر الحمار وناولنا رسنه وقال:

ـ ألف مبروك..

ثم أضاف:

ـ على أي حال.. ذهب حمارنا العجوز بسعر رخيص.. ولكن.. لتجدوا فيه الخير.

كانت عينا الأمريكي مفتوحتين ينظر إلى البساط في يد القروي.. ما العمل الآن؟ قال:

ـ آمان.. دعنا لا نظهر له شيئاً على الإطلاق.. لنأخذ الحمار وننزل قليلاً.. ثم نعود إليه دون أي إشارات ونقول له: «آمان يا عم.. إن ظهر الحمار سيبرد.. أعطنا القطعة التي في يدك لنغطيه.. ولكن.. انتبه كي لا يفهم الرجل أننا نسعى وراء ذلك السجاد الذي في يده..»

أمسكنا الحمار من رسنه ومشينا.. أنا أسحبه من الأمام والأمريكي يدفعه بقوة من الخلف.. لو قلنا أننا مشينا خطأ.. أو لأن مشيتنا كانت صعبة جداً.. أو لأن الحمار لم يكن لديه القدرة على نقل خطواته.. لو خلصنا السجاد من يد القروي.. كنا سنترك الحمار ونمضي في طريقنا.

ابتعدنا عن المنطقة عشرين أو ثلاثين خطوة بجهد جهيد.. نادانا القروي من الخلف وأسرع نحونا وقال:

ـ توقفوا.. توقفوا.. لقد نسيتم هذا الشيء.

فرحنا كثيراً.. الرجل يأتي بالبساط من تلقاء نفسه.. آمان انتبه.. قطع

الرجل التلة ووصل إلينا وقال:

ـ ولك عمي لقد نسيتم الوتد الحديدي للحمار.. عندما ستأخذونه إلى أمريكا.. أين ستربطون رسنه..؟ ألم تفكروا.. هل تشترون حماراً بدون وتده.. عدم فهمكم واضح عليكم..

أخذنا من يده الوتد الحديدي.. وفيه حلقة حديدية.. قال لي الأمريكي:

ـ هيا تكلم.. جاءت الفرصة المناسبة..اطلب منه البساط الآن.. ولكن انتبه.. ولا تظهر شيئاً.. قل له: «أعطنا هذا البساط القذر أيضاً».

قلت للقروي:

ـ هذا الحمار ضعيف ومهزوز، ومريض، سيبرد.. أين القطعة القذرة التي كنت تغطيه بها.. أعطنا إياها لنغطي ظهره.

قال:

ـ لا.. لا.. لا أعطيكم البساط.. اشتريتم مني الحمار فقط.

ـ نعم اشترينا الحمار فقط.. ولكن ماذا يحصل لو غطينا ظهره بتلك القطعة.. ثم إنها لا تساوي شيئاً أبداً.

ـ نعم إنه.. قديم وقذر.. ولا يساوي شيئاً.. ولكن لن أعطيكم إياه.

ـ لماذا؟

ـ لا أعطيكم يا سيدي.. إنه ذكرى من والدي.. ومن غير المعقول أن أعطيكم إياه..؟ إنه ذكرى متواصلة بين الآباء والأجداد.. لا أعطيكم.

قلت للأمريكي:

ـ إنه لا يعطينا إياه لأنه ذكرى من أبيه وجده.

قال:

ـ اسأله ماذا سيستفيد منه يا ترى؟

قلت للقروي:

ـ هذه القطعة القذرة ماذا ستستفيد منها يا ترى؟

أخذ القروي موقفاً جدياً مفاجئاً، وقال:

ـ ماذا تعنون بقولكم لا يساوي شيئاً..؟ بعد قليل سأجد حماراً جرباناً آخر وسأضعه على ظهره.. فإن ثاقبني الحظ أجد إنساناً فضولياً مثلكم.. وأبيعه الحمار بإذن الله.. هذه القطعة تجلب لي الحظ.. أنا أعطيتكم الوتد مجاناً.. هل قلت لكم شيئاً؟

ـ يا أخي نعطيك بعض الليرات ثمناً.. للقطعة.. ونغطي بها ظهر الحمار.

ـ والله عال.. وكيف سأبيع الحمير الأخرى.؟! منذ خمس سنوات وأنا أبيع الحمير الجربانة الضعيفة بسبب هذه القطعة.. هيا مع السلامة.. اذهبوا.. ترون الخير على وجهه إن شاء الله.

خشيت أن يصاب الأمريكي بسكتة قلبية حادة.. تأبطت ذراعه. تكلم القروي بعد أن ابتعد عنا بعض الشيء وقال:

ـ إذا كنتم ستتركون الحمار.. لا تبعدوه من هنا كثيراً.. أقول ذلك كي لا تتعذبوا فقط.

تركنا الحمار في مكانه واتجهنا نحو سيارة الجيب.. قال الأمريكي الخبير بالسجادات:

ـ يقولون باقي المناطق.. أمثال هذا الإنسان ليس موجوداً في باقي مناطق العالم.. لم أختبر هذا الشيء أبداً.. كله طبق الأصل إلا هذا الشيء.

ركبنا الجيب.. وبقي الوتد في يده.. سألته:

ـ ماذا ستفعل بهذا الوتد الحديدي؟

قال:

ـ سأضعه في معرض سجادي كذكرى.. إنه وتد قيم جداً.. اشتريناه بألفين وخمسمائة ليرة فقط.. بسعر رخيص جداً.

ـ نعم.. نعم.. تهزأنا.. والله تهزأنا.. توووه..

تركته وهو يضرب يده على رأسه ويقول:

ـ تهزأنا..

○ ○ ○

لولا مستقبلي

سيدي الأفندي.. لقد قدمت لكم وعلى ورقة مكتوبة سيرة حياتي الشخصية .. قلتم: يجب أن تكون شاملة كل تفرعاتها؟

على الرأس والعين يا سيدي.. سأكتب لكم عن ذلك بالتفصيل؟

تقول حتى أقصر التفرعات والتفصيلات من حياتك؟.. أنت تأمر.. فهمت.. سأبدأ منذ ولادتي.. نعم.. نعم.. ليس قصة حياتي بل ذكرياتي أيضاً.. تريدون ذكريات حياتي.. على الرأس والعين. دون أن أخبئ شيئاً.. طبعاً.. لا شبهة فيه.. نعم حتى النقاط السرية جداً من حياتي.. نعم.. نعم.. بكل تفرعاتها. على الرأس والعين يا سيدي.. على الرأس والعين يا سيدي.

محسوبكم ولد في (قاليجا).. تريد أن لا أعود كثيراً إلى الوراء.. أكرمتم يا سيدي. لأبدأ من نقطة أقرب.. نعم.. تريد أن تسمع مني أهم الحوادث التي مرت على رأسي.. فهمت يا سيدي.

الحادثة الكبيرة الأولى والتي لا أستطيع أن أنساها يا سيدي.. هي مشجارتي مع بعض الأصدقاء في مدرسة (نومونه ترقي) وبما أنكم تريدون الصدق والصواب.. الحادثة التي أستطيع أن أتذكرها مفصلاً وكاملاً هي الضرب الذي انهال علي من الطالب الصغير محمد.. لا.. لا.. أنا لم أتلقَّ ذلك الضرب، لو لم يكن محمد صغير الحجم قصير القامة، لذلك لقبناه «مينو سكيل محمد».

مر على هذه الحادثة.. انتظروا قليلاً.. تقريباً ستون عاماً.. كنت أجلس في مقعدي.. أدرس دروسي.. وإذا بصفعة تنصب على رقبتي.. ما زلت

أتذكرها.. حتى هذا اليوم.. أن الشرر قد تطاير من عيوني.. عندما نظرت إلى الخلف.. وإذا به الطالب الصغير محمد.

وقبل أن أقول شيئاً.. وإذا بصفعة قوية تنزل على وجهي.. وهو يقول:

ـ لماذا تضربني ولك؟

كانت صفعته قوية يا سيدي.. من أين يأتي بهذه الصفعات.. ذلك القصير المدعبل.. قلت له:

ـ من الذي يضربك؟

لم أنته من كلامي.. وإذا بصفعة أخرى تنزل على وجهي.. وهو يقول:

ـ أنت تضربني ولك.

والصف كله يضحك بصوت عال ويقهقه.. وعندما كنت أقول له:

ـ انتظر يا أخي ما من أحد يضربك.

وإذا بلكمة قوية تنزل على أنفي.. عفواً يا سيدي.. سقطت على الأرض من جراء قوة اللكمة والدماء تسيل من أنفي.. وبدأ بلكمي هنا وهناك حتى أدمى جسدي وهو يقول لي:

ـ لا تضربني ولك.. والله أشكيك.

أما الباقون الذين حسبتهم زملاء وأصدقاء.. فكانوا يضحكون علي.. قلت لهم:

ـ أيها الزملاء.. هل رأيتموني أضرب هذا.. قولوا بربكم؟؟

وإذا ب (مينو سكيل محمد ينهال على جسدي.. باللكمات والصفعات واللبطات وهو يقول:

ـ نعم أنت تضربني.

أنا الآخر كنت سأضربه يا سيدي.. إلا أنني لم أستطيع إلى ذلك سبيلاً.. لوجود المعلم خالد.. ولولا وجوده لكنت أعطيته ما يستحق على أكمل وجه.. آه.. ماذا أفعل..؟ المعلم خالد موجود.. ولولا أنه موجود.. والله وبالله.. لكنت هرسته وهرسته وعجنته حتى جعلت منه نقطة ليس إلا.. لكن ماذا أفعل المعلم خالد موجود..؟ ولولا أنه موجود لكنت قتلته والله.. نظرت في كل الجهات.. ماذا أفعل..؟ هربت إلى الحديقة.. حتى تخلصت من يد (مينو سكيل محمد).. آه لولا وجود المعلم خالد لكنت لقنته درساً.

الحادثة الثانية المهمة يا سيدي.. جرت معي وأنا ألعب الكرة مع أطفال الحي.. في إحدى الساحات العشبية.. كنت في الخامسة أو السادسة عشرة من عمري.. تاريخ قديم.. في ذلك الزمان كانت لعبة كرة القدم قد دخلت حديثاً إلى استانبول.. أتذكر أنني سجلت هدفاً في مرمى الفريق الثاني.. عفواً يا سيدي. كان هنالك ولد اسمه (ملاق حقي).. أخجل من ذكر الكلمة أمام سيادتكم.. الكلمة التي قالها لي بعد أن سجلت الهدف.. قال لي: «هاسي».. أما أنا فقلت له: «أنت».. وإذا بملاق حقي ينهال علي ضرباً.. أما أنا فلم أضربه.. لأن تربيتي السليمة التي تعلمتها من عائلتي لا تسمح لي بذلك.. وظلَّ يضرب ويضرب.. حيث تحول أنفي وفمي إلى بازار الأربعاء.. أنا أعرف كيف أربيه.. لولا هذه التربية العائلية.. والله كنت رفسته هناك مثل باستيل.. لولا التربية العائلية.. من.. أنا.. محسوبكم..؟ لولا التربية العائلية لكنت أكلته نيئاً.

وهناك حادثة أخرى أتذكرها.. جرت معي.. وأنا في العشرين من عمري.. كنت مراهقاً.. دمائي تغلي في عروقي. حدثت تلك الواقعة عندما كنت ألعب الطاولة في المقهى. وقد نسيت اسم الشخص الذي كنت ألعب معه الطاولة.. هذا صديق.. فجأة يرفع الطاولة إلى الأعلى وينزلها على رأسي.. فشعرت بالنجوم تتراقص أمام عيني.. احترت في أمر

الضربة ومن أين جاءتني فجأة.. كنت سأضربه يا سيدي.. نعم سأضربه.. ولكن لولا وجود أبي.. نحن نحترم آباءنا كثيراً.. نشكر الله.. وإلا لكنت أكلته نيئاً. آه لولا وجود أبي.. أبي موجود.. لم أرفع صوتي كي لا يسمعه.. ذهبت إلى الصيدلية.. ولفوا رأسي بالقماط.

ثم يا سيدي.. والحادثة التي لن أنساها أبداً.. في أحد أيام الخريف.. وكما هو معلوم.. المراهقة معناها أن تحب.. عشقت فتاة. كنت سأطلبها من عائلتها للزواج.

ذات مساء بينما.. كنا نقوم بنزهة في البراري.. ومعطفي على جسدي.. وإذا برجل يخرج من بين العليق.. وحاول خطف الفتاة.. هل يعقل يا سيدي أن أترك الفتاة تذهب معه؟ والرجل آه.. لو تراه.. لو نفخت عليه لوقع.. بدأنا بالشجار والمصارعة.. لكن محسوبكم يلبس معطفاً سميكاً.. ثقيل الوزن.. وواسعاً.. بسبب هذا المعطف لم أستطيع ضرب الرجل.. آه لولا وجود المعطف.. لرأى ذلك الأبله ما كان سيحل به.. ولكن ماذا سأفعل.. كنت ألبس المعطف..؟ لعنة الله على معطفي..! أخذ الرجل الفتاة عنوة.. وسحبها نحو الغابة وهي تصرخ:

ـ توه عليك.. أي نوع من الرجال أنت؟

وكأنها لا ترى المعطف الذي يكسوني.. أما أنا فقلت لها:

ـ لولا وجود المعطف لفعلت به الشيء الكثير.

بعد ذلك يا سيدي.. راحت أيام.. وجاءت أيام.. والعمر لكم.. توفي والدي وكنا نسكن في منزل واحد. أمي في الطابق الأرضي، أنا والهانم في الطابق العلوي. وفي الشهر الثاني أو الثالث من زواجنا.. لم أعد أتذكر.. فقد مضى وقت طويل.. وإذا بزوجتي (رفيقة) تهجم علي وكأن مساً من الجنون قد أصابها.. كل ما تلتقطه من البيت ترميه على رأسي.. وعندما انتهى كل شيء وإذا بها تركب على كتفي مثل ديك سويدي..

وتبدأ بالضرب والتجريح والعض.. كل ذلك ليس مهماً.. المهم أن لا تسمع أمي ذلك وهي في الطابق الأرضي.. إنها امرأة يا سيدي لو ضربتها بقفا يدي ستقع على الأرض.. آه لولا وجود أمي لأذقتها ما لم تذقه في حياتها.. ولكن أمي.. بسبب أمي لم أرفع صوتي أبداً.

بعد معالجة دامت شهراً كاملاً انفصلنا عن بعضنا.

مرة وأنا في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمري.. وفي منتصف إحدى الليالي.. استيقظت على صوت نقرات وحركات في المنزل.. إنه سارق دخل الغرفة. كان يقلب موجودات الخزانة.. لو عرفت أنه لص لتظاهرت بالنوم.. وكيف سأعرف ذلك..؟ المهم قفزت أمامه وما حصل قد حصل. عندما شاهدني الرجل وإذا به يهجم علي.. إنه حرامي بكل معنى الكلمة.. إنه يكبس صاحب البيت. نعم.. نعم.. يكبس صاحب البيت. لو رأيته يا سيدي.. إنه لا يتحمل ضربة كف واحدة.. لو كنتم مكاني.. ماذا تفعلون؟ كنتم تضربونه.. أنا الآخر كنت سأضربه ولكن.. ماذا لو وقع في يدي ميتاً فاقد الحركة؟.. ثم هناك القانون.. آه لولا وجود القانون.

أوشك الرجل أن يخنقني وأنا تحت اللحاف، وفي كل مرة أصرخ طالباً النجدة.. (النجدة) يهجم علي أكثر. فتظاهرت أنني اختنقت حتى تخلصت منه.. بعد أن أخذ كل محتويات البيت وغادره. قاتل الله القانون، وإلا لكنت طحنته تحت أقدامي.. وبعثرت جثته على الأرض.

تزوجت ثانية.. وقررت السفر إلى أنقرة للعمل. لم ألحق بالقطار.. في تلك الليلة رجعت إلى البيت، ولكي لا تستيقظ زوجتي دخلت غرفة النوم على رؤوس أصابعي. وبما أنكم طلبتم مني أن أقص لكم كل شيء بحذافيره. سأفعل ذلك دون أن أنقص حرفاً واحداً.

نظرت إلى السرير.. فرأيت حركات عجيبة غريبة.. لتكن الحركات

فقط.. إنها أمر عادي وجميل.. كانا يتحدثان همساً: «روحي.. سُكرَّتي.. ضناي.. حياتي».

فجأة غلى الدم في عروقي.. هذه مسألة شرف يا سيدي.. هل يشبه شيئاً آخر؟ أخذت مسدسي على الفور، وكنت سأقضي على الاثنين معاً.. طاق.. طاق.. طاق.. ثأراً لكرامتي وشرفي!.. الوقت متأخر من الليل.. الجيران كلهم سيستيقظون.. آه لولا وجود الجيران.. لكنت أرسلتهما إلى جنة الحمير.. أما والجيران موجودون. ليدعُ للجيران.. وكأن شيئاً لم يحصل.. خرجت من الغرفة على أطراف أصابعي.

نعم كنت سأطلقها يا سيدي.. وضعت النقطة على الحرف تماماً.. كنت سأطلقها.. ولكن هنالك طفل قد جاء.. وآخر خلفه.

وبعد انتقالنا إلى المصيف.. وفي إحدى الليالي.. نعم.. وجدتها في حالة غير عادية.. عفواً يا سيدي.. نعم أمي ليست في المنزل.. وليس من جيران حولنا.. ولكن الأولاد موجودون. آه لولا وجود الأطفال..!

عندما ضبطتهم متلبسين.. وإذا بالرجل يهجم علي وكأنه هو من ضبطني.. وهو في عري كامل.. قلت له: «يا سيد البس ثيابك وتعال» هل يفهم عليَّ.. لم يفهم.. آه لو لم يكن عارياً.. ويداي تلمسان جسده يا سيدي.. لكنت... وظلَّ الرجل يهجم من جهة وزوجتي من جهة. لولا وجود الأطفال لكنت عرفت ماذا أفعل بهما.. تقول.. ماذا كنت سأفعل؟ كنت سأنفصل عنها طبعاً.

ولكن عندي أطفال.. هم من شفعوا لهما. ليدع الأطفال.. لولا وجودهم لكنت دستهما معاً.. نعم.

وحادثة مهمة أخرى وقعت في الدائرة.. كان المدير يستهين بكرامتي أمام الجميع.. ودون سابق إنذار.. يحقرني دون حياء من أحد.. بوجود

الجميع.. حتى أنه بدأ يسبني ويشتمني ويكفر في وجهي.. لا أحد يتحمل ذلك. قلت سأرفع شكوى.. ولكن هناك الخوف من الله.. كيف سيعيش الرجل بعد طرده من الوظيفة.. لولا الخوف من الله.. ذات يوم فوجئت به به يبصق في وجهي على مرأى كل الموظفين.. تووه..

ماذا أفعل يعني؟ والحُجّاب كلهم يراقبون.. لولا وجود الحاجب.. لأنني وصلت إلى حالة.. كنت علي وشك أن أخنق المدير وأقتله.. سأقتله.. ولكن هو الآخر سيرفع تقريراً ضدي ويطردني من العمل.. وفي البيت أطفال وعيال.. آه يا سيدي آه.. لولا وجود العيال والأولاد في البيت.. ما بقيت هناك لحظة واحدة؟؟

ومرة كنت في الدائرة.. وإذا بامرأة وهي من أصحاب المصالح تقف أمامي ومعها طفل في الخامسة من عمره.. لا أدري ما أصاب.. تلك المرأة.. وإذا بها تضربني بعلبة حبر كبيرة على رأسي.. يا إلهي.. هما شخصان.. وأنا واحد.. لولا أنهما اثنان لعرفت ماذا كنت سأعمل بها.. ولولا أنها امرأة لرأت آخرتها.

المهم يا سيدي أُحِلت على التقاعد وتخلصت.. الشكر لله.. الولد الصغير في ألمانيا والكبير فتاة.. تزوجت منذ وقت طويل.. وتوفيت الهانم.. الآن أعيش وحدي.

تقول.. حادثة أخرى غيرها.. حادثة مهمة أخرى..ها!!! نعم قبل أيام.. هجم المستأجر علي وضربني بحذائه.. انظروا ما زال أثره حتى الآن في جبهتي.. آه.. العجز والشيخوخة.. لو كنت كما في الماضي.. ما تركته يفعل بي هكذا..

تسأل عن عمري يا سيدي.. ثلاثة وسبعون.. وأنا آت لسيادتكم تعرضت لإهانة كبيرة من أحدهم.. تقول: لماذا؟ وهل أنا أدري يا سيدي؟ هكذا قلة تربية.. كنت في الحافلة.. وإذا به يوجه لوجهي لكمة قوية وهو

يقول لي: «ابتعد من وراء زوجتي» انظروا مكانه.. إنه محمرّ أليس كذلك؟

تقول: ماذا فعلت..؟ وماذا سأفعل يا سيدي..؟ أنا عندي مستقبل لولا مستقبلي.. هل كنت تركته هناك سالماً معافى.. والله وبالله.. لولا وجود المستقبل لدسته برجليَّ..

لولا مستقبلي لكان آخر يوم بحياته.. بهذا القدر يا سيدي..!

○ ○ ○

حب الضيافة الوطنية

كان يملك مكتبة في إحدى الولايات البعيدة، ومراسلاتنا مستمرة.

فهمت من رسائله أنه شاب تقدمي. مع بداية كل صيف، كان يكتب إلي ويدعوني إلى تلك الولاية التي يعمل بها كصاحب مكتبة. وفي كل مرة كنت أكتب له أنني لا أستطيع الحضور لكثرة أعمالي وأشغالي. لم يملَّ من دعوتي، كان يكتب إليَّ موضحاً، بأن القراء سوف يسرون كثيراً بالتعرف عليَّ. وأنهم ينتظرونني. وحقيقة الأمر كنت أحبذ الذهاب إلى تلك الولاية (المحافظة) التي لم أزورها أبداً، وأقيم فيها يوماً أو يومين. ولكني لم أجد الوقت والفراغ الكافيين. في بداية الصيف جاء صاحب المكتبة إلى استنبول، واتصل معي هاتفياً يسأل عن حالي وأحوالي ويستفسر عما إذا كان بإمكانه أن يلتقي بي في منزلي. وقعْت في حيرة، فقد كنت مستغرقاً في تأليف كتاب واقعي وهام. ولم يكن لدي فراغ من الوقت. إلا أنه يصعب على الكاتب أن يوضح لقرائه قلة فراغه ووقته.

سألته في أي وقت سيرجع إلى ولايته، قال: إنه جاء قبل يومين وأنه سيعود بالطائرة هذه الليلة. إذن هو الآخر لم يكن لديه وقت. قلت له: أنتظرك في منزلي احضر حالاً.

الشاب التقدمي، يعمل في مكتبة وقد راسلته منذ ثلاث أو أربع سنوات. لم يحضر إلى منزلي وهو فارغ اليدين، لقد أحضر معه ضمن علبة نوعاً من الفاكهة المشهورة في ولايته ومن إنتاجه الشخصي.

قال بأنه لن يأخذ الكثير من وقتي. ومرت ساعة من الزمن ونحن

نشرب الشاي ونتحادث /نتناقش/ كان يتكلم بلهجة محلية فريدة وحلوة.

كان زائري مثقفاً درس خارج الوطن، وصف نفسه بأنه إنسان عصامي أوجد نفسه بنفسه، أحب هؤلاء الناس، ولكن من بعيد!! إذا كنت سأفرغ نفسي لكل محب ساعة أو ساعتين، كان علي أن أودع الكتابة والكتاب. وهكذا أصبحت الحال في السنوات الأخيرة، كان يدعوني إلى ولايته البعيدة كي أوقع كتبي للقراء الذين سيشترونها. وأبقى يومين أو ثلاثة أيام هناك ضيفاً عليه وعلى محافظته البعيدة. وكان يُلحُ على ذلك. ويؤكد أني سأرتاح هناك. الاستجمام هي الكلمة التي خدعتني، حددنا موعد ذهابي إلى تلك المحافظة البعيدة، ورحل الشاب مسروراً بعد أن أخذ مني موعداً للذهاب.

وصلت إلى مطار تلك المحافظة البعيدة في التاريخ المحدد، استقبلني الشاب مع أحد أصدقائه. وانطلقت السيارة بنا تأكل الطريق، وصلت إلى المحافظة البعيدة ليلاً. حسبت أني سأنزل في أحد الفنادق في هذه الساعة المتأخرة من الليل. حتى أنني لم أفكر بتناول العشاء. ولكن التخلص صعب من الأفراح الشرابية /الكحولية/ وخاصة إذا كنت مدعواً. ورغم توسلاتي لهم بأني لا أرغب بالعشاء، فأنا بحاجة إلى النوم والراحة.. فكان جوابهم:.. أووو هل يستطيع الإنسان أن ينام وبطنه فارغ؟.

تذكرت حكمة الأولين القائلة: /الضيف حمار صاحب البيت/ فأنا الذي قبلت أن أكون ضيفاً. ولهذا كان علي الاستجابة مضطراً لتوسلات الترجي المشفوعة بالرقة لصاحب البيت. تفضلوا! كنت أظن أننا سننزل في أحد الفنادق، حيث أضع محفظتي وأغسل يدي ووجهي، وربما نأكل طعام العشاء في مطعم ذلك الفندق. لكن الأمر اختلف كلياً، فسيارتنا بعدما اجتازت الأماكن الخالية من السكان.. دخلنا الأماكن المضيئة..

رأيت المخازن والأنوار.. مررنا أمام البنايات الكبيرة. ومن ثم دخلنا مستنقع الظلام. ثمة أضواء خافتة كانت تتسرب من خلف الستائر. الشيء الذي فهمته أن مضيفي سيصحبني إلى فندقٍ غير نظامي وفي حي أهملته البلدية.

توقفت السيارة أمام كومة من السواد بعدما نَزَلت وصعدت بحفر في الطريق. هذا السواد الكبير يجب أن يكون الفندق الذي سأنزل فيه. نزلنا من السيارة، لم تكن ثمة أضواء أمام الباب، رنَّ مضيفي جرس الباب، فانفتح. في الداخل مصباح كهربائي ينير الغرفة. استقبلتنا في الباب امرأة تلبس لباساً قروياً وعدة أطفال، كانت المرأة حاملاً وإلى جانبها أربعة أطفال، الطفل الذي في بطنها كان ينتظر الخروج إلى الحياة في كل لحظة. أحد الأطفال في حضنها، وأمسكت بيد الثاني، أما أكبر الأطفال فقد كان واقفاً متشبثاً بطرف ثوبها.

ـ تفضلوا..

فهمت أن المكان الذي جئنا إليه ليس فندقاً.. وإنما منزل ذلك الشاب المثقف والذي ألحَ عليَّ للمجيء إلى هنا... هذا ما فهمته بعد ذلك.

قلت وأنا أدخل من الباب: أرجو أن لا أزعجكم في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

ـ ما هو الإزعاج.. استغفر الله... تفضلوا.. تفضلوا...!

هذا المكان قبو من عمارة على وشك أن تتهدم.

سأل الشاب المثقف زوجته الحامل: هل السفرة جاهزة يا هانم؟

أجابت المرأة: بعد أن رحبت بي وشدت على يدي، السفرة جاهزة من المغرب.

كانت المائدة جاهزة حقيقة في الغرفة التي دخلنا إليها. وربما بطحةً من

العرق تحت المنضدة، وتوزعت عدة مناشف بيضاء على المائدة. كما استقبلنا صديق الشاب وزوجته وأطفاله الثلاثة، وعلمت بعد أن دخلنا البيت أنه شقيق الشاب الذي دعاني. كان عدم الجلوس إلى المائدة بعد أن تم تجهيزها من قبل هاتين المرأتين النشيطتين، ضرباً من الجنون.. وفي كل الأحوال.. بعد العشاء بالتأكيد كنت سأذهب إلى الفندق.. ولهذا السبب كان يجب البقاء هنا ساعة أو ساعتين.

الأكلات الشعبية المحلية /والمازوات/ كلها كانت رائعة. تعجبت من الأمر كيف لامرأة لها ثلاثة أولاد عدا الذي في بطنها.. كيف جهزت هذا الكم من الطعام.. مرت فترة العشاء بسلام.. لا حرارة إنسانية زائدة ولا باردة مع أن الأطفال الموجودين معنا والذين حبسوا في الغرفة الثانية، كان لهم دور كبير في برودة الجو وعدم صفائه.. من كثرة الصراخ والعويل والطلب والرد. ولكي أخطو بالخطوة الأولى نحو الفندق قلت:

عن إذنكم.. ايه.. يجب أن أذهب..

سألني صاحب البيت وفي عينيه حالة من الحيرة الشديدة:

- إلى أين؟

قلت: إلى الفندق.. ألن تأخذني إلى الفندق؟

كان حديثهما بلهجة محلية قحة:

- لو قتلتني أفضل من أن تقول هذا الشيء يا سيدي. إذا كنت تريد أن تجعل مني أضحوكة أمام الناس.. وتريد أن تجعل مني لا أساوي عشرة قروش.. ماذا سيقول الناس.. انظروا، جاء ضيف من استنبول ولم يستقبله في بيته.. اجعلني قرباناً لك يا سيدي. لا تجعل من الناس تقول عني.. انظروا دعا ضيفاً من استانبول ولم يحترمه في بيته... بل أخذه إلى غرف الفندق ليتخلص منه.. هذا لا يمكن يا سيدي ستبهدلني أمام الناس بحيث

إذا وقعنا في ألسنة البلد، لا نستطيع أن نتخلص من هذه البهدلة أطفالاً ورجالاً حتى البطن السابع. إذا ذهبت إلى الفندق، فما عليَّ إلا أن أقتل نفسي أو أرحل بعيداً إلى ديار الغربة.. لا تفعل ذلك يا سيدي لا تخجلني يا سيدي.

في أول الأمر لم أكن أفهم ما يقوله.. بعد ذلك فهمت أنه يطلب مني أن أنام في بيته وليس في الفندق وبعبارة أخرى.. وعلى حساب ما يقصده أنه لا يريد أن يرميني في زوايا الفندق.

ماذا أقول وأنا في هذه الحالة من الدهشة والحيرة:

ـ أنا لا أريد أن أزعجكم ببقائي هنا ليس إلا. بقائي في الفندق يكون مناسباً أكثر على ما أعتقد.

ـ استغفر الله.. ما هذا الإزعاج.. وأي إزعاج.. هل أنت غريب حتى ننزعج منك.

شكرته.. ولكن لن أبق في البيت.

ـ أنا أعرف أنكم لن تحسوا بالإزعاج لبقائي.. ولكني شخصياً أشعر بعدم الرضا عن نفسي. وخوفاً من أن أسبب لكم شيئاً من ذلك /أي الانزعاج/

كل ما سأقوله لا نفع له... في هذه المرة.. قلت أنه لكل واحد منا عادة ما، فمثلاً /عيب واحد يحكي/..من عادتي أني لا أستطيع النوم /بالبيجاما/ ولأجل هذا السبب يجب علي أن أذهب إلى الفندق..

كان جوابه حاضراً:

ـ إذا كنت تريد النوم بالسروال.. أو بدونه.. أنت حر في كل تصرفاتك.

كان التخلص صعباً من صاحب البيت.. في النهاية.. رضيت أن أبقى

تلك الليلة في المنزل ولو مكرهاً. والصباح رباح ومع كل صباح خير جديد.

كنت أقول في نفسي في صباح اليوم التالي لا بد أن أجد طريقة للتخلص، وأتوجه إلى الفندق.

بعد أن اطمأن صاحب البيت، وأعطيته الأمان والوعد بالبقاء عنده. بدأ يشرح لي بأنه لا يريد سوى راحتي. والحقيقة لم يكن عندي شك بسيط في ذلك وكنت أعرف أنني لن أرتاح في بيته أكثر من الفندق.

قلت لهم بأنني تعبٌ جداً من السفر وأنني سأنام باكراً... كان الوقت بعد منتصف الليل إذا لم يكن أقل ومن الممكن أن نظل حتى الصباح نتناقش بكلام غير مفيد.

كنت أعتقد بأنني سأذهب إلى غرفة النوم، وأين مكانها، ولكن الشيء الذي ظهر للتو بأن غرفة النوم هو المكان الذي تناولنا فيه طعام العشاء.

أفرغوا مائدة الطعام إلى المطبخ، وسحبوا المائدة إلى زاوية من الغرفة، وجمعت المرأة مناشف الطعام البيضاء، أما الرجلان فأحضرا فرشتين ووضعوهما فوق بعضهما، ثم أحضروا الوسائد والشرشف والبطانية.. واللحاف.. فأصبح مكان النوم جاهزاً.

انسحبوا من الغرفة وهم يقولون: أراحك الله...

أصغيت بعض الوقت لخلو المنزل، انتظرت خلاء التواليت، وعندما عم السكون داخل البيت، خرجت أمشي على رؤوس أصابعي كي لا أحدث ضجة. كان الممشى مظلماً. وجدت صعوبة في إيجاد زر المصباح الكهربائي، وفجأة التف على رجلي شيء ما.

حاولت التخلص من هذا الشيء وكنت على وشك السقوط رأساً على عقب، لقد صدمت القطة التي كانت تمشي بين قدمي. فأطلقت

مواءً من شدة الألم الذي سببته لها.. وربما أحس الجميع واستيقظوا من نومهم. دخلتُ بيت الخلاء أو بالأحرى دخلت إلى المكان الذي ظننته بيت الخلاء. نظراً لرائحة المكان، كان من المفروض أن يكون /بيت الخلاء/ لكن منظره كان على شكل عنبر صغير، إنه مكان كالمستودع، فيه صندوق للنفايات. وهناك سلة كبيرة، وجلود دراجة عادية، وكتب متناثرة هنا وهناك، أطباق كبيرة وصغيرة، عدة أزواج من الأحذية، وزجاجات فارغة وأمتعة كثيرة لا تحصى. ووسط هذه الأكوام كان بيت الخلاء مختبئاً في مكان. بحيث لم أستطع إيجاده. كنت على وشك أن أعود ثانية دون أن أتغوط، ولكن ذلك مستحيل ـ العفوـ كنت في ضيق شديد. ركزتُ حاسة شمي على الجهة التي تزداد منها الرائحة ومشيت داهساً العلب وأكوام الجرائد والثياب الوسخة وأخيراً نجحت في إيجاده. كان الجلاس مكسوراً، لكن من ضيقي الشديد لم أكن أرى لا الكسر ولا المكسور.

ربطوا حبلاً بالشلال (السيفون) بدل السلسلة الحديدية، وعندما سحبته أصدر السيفون قرقعة كبيرة، وتمايل من أساسه، إنه زلزال حقيقي. لم أعرف أين سأذهب وماذا سأفعل؟ والحمد لله لم يدم الاهتزاز طويلاً، استقر كل شيء بعد قليل. ومع كل هذه الضجة والهزة والقرقعة لم تنزل نقطة ماء واحدة من خزان الماء. عندما فتحت باب بيت الخلاء وأنا في حيرة من أمري، وإذ بشخصين اثنين واقفان أمامي بسراويلهما الطويلة استيقظا مذعورين من نومهما. قال صاحب المكتبة:

ـ آه، لقد نسينا أن نقول لك أن خزان بيت الخلاء فارغ ومعطل. وعند سحب السيفون يصدر صوتاً كالذي سمعته.

ـ ليس صوتاً فقط.. بل اهتزازاً أيضاً.. فاعتقدت أنه زلزال حقيقي..

أوضح الشخصان لي طريقة تنظيف بيت الخلاء. فإلى جانب الكرسي

صفيحة فارغة.. في داخلها علبة.. ستأخذ العلبة وتملؤها بالماء من الصنبور وتفرغها في الخلاء.

قلت لصاحب البيت المضياف:

ـ أنت محقٌ جداً.. لكل بيت طريقته الخاصة لتنظيف الخلاء. الحق عليَّ كان يجب أن أسألكم وأتعلم طريقة التنظيف.

بينما الرجلان عائدان إلى غرفة نومهما، توصلت إلى قناعة بأن الاثنين ينامان في غرفة واحدة والزوجتين والأولاد في غرفة ثانية.

عادا إلى غرفتهما وبدأت أنا بالبحث عن المغسلة لأغسل يدي. والمغسلة هي الأخرى لم تكن في مكان يسهل علي إيجادها.. والحمد لله وبعد بحث طويل وقعت يدي على صنبور المغسلة ـ الشكر للهـ أخيراً وجدت الصنبور لأغسل يدي ووجهي. المضحك في الأمر، أني وجدت مقبض الصنبور مربوطاً ربطاً محكماً بحبل. فكرت لحظة بطريقة أستدل فيها إلى فتح الصنبور، لكني لم أجد حلاً لذلك. مع أن قبضة الصنبور مربوطة، لكن الماء لا يتساقط من فتحة الصنبور.

أدرت المقبض بروية، فانسكب الماء فجأة من الصنبور /شيريل... شيريل (صوت انسكاب الماء)/ وكلما حاولت إغلاقه زاد تدفق الماء أكثر. احترت فيما سأفعل، فكرت أن أترك الأمر هكذا وأنام. ولكن المياه المتدفقة كانت قد ملأت المغسلة وبدأت تسقط على الأرض وتملأ زوايا الغرفة. ربما يغرق البيت خلال ساعات قليلة بالمياه. كنت ألعن نفسي وبعنف، لماذا وكيف وقعت في تأثير الرجل وبقيت هنا في هذا البيت. ولماذا لم أعمل المستحيل للنزول في أحد الفنادق. ورغم صراعي مع الصنبور لبعض الوقت فقد فشلت في إغلاقه. تبللت ثيابي بكاملها. ولم أجد حلاً غير إيقاظ صاحب البيت لحل هذه المشكلة. طرقت الباب مصدر شخير النائمين فكان الجواب شخيران آخران من شخصين.

فكرت بالهرب من المنزل لكن كيف؟ أنا إنسان غريب وفي محافظة نائية.. والصباح قريب.. لا أستطيع التحرك قيد أنملة في هذا الظلام... فأين وكيف سأجد فندقاً... مستحيل. طرقت الباب ثانية وبقوة، كان الجواب ثانية شخيران أحدهما ناعمٌ ، والآخر كصوت ارتطام سلاسل باخرة بقوة على الأرض. ما من حل إلا أن أفتح الباب وأدخل الغرفة. وفعلت ذلك، رجلان في فراشٍ واحد يشخران كالأغنام. أيقظتهما بعد نصف ساعة على أقل تقدير، بالهمز وبالضرب والصراخ، سألني صاحب المكتبة بلهفة ودهشة: ماذا هناك؟ قلت له: خير لا شيء سوى أنني لم أستطع أن أغلق صنبور الماء، والمياه على وشك أن تغرق البيت بما فيه. انتظرت عشر أو خمسة عشر دقيقة والرجل لا يعرفني ولا يفهم ما أقوله. في النهاية مشى الاثنان أمامي نحو المغسلة وقد ارتفع منسوب الماء داخل بيت الخلاء إلى مرفق القدمين.

هجم الرجلان دفعة واحدة على الصنبور، وكأن معركة حامية بدأت مع الصنبور والحبل والماء. في نهاية هذه المعركة نجح الرجلان بإزالة الحبل من مقبض الصنبور وربطه بحبل جديد آخر وقطعوا تدفق الماء. في هذه المرة بدأ الصنبور يصدر صوتاً كصوت كلب الحارس. كان الرجلان يحاولان تنظيف الأرض من المياه ومن جهة أخرى يحاولان إرشادي إلى غرفة نومي.

ـ اذهبوا وناموا... تمددوا.

كانا يعتذران ويحاولان التوضيح لي بأن لكل بيت خصوصيته. كان صوت الصنبور يهدر بقوة. مستحيل أن أنام أو أغفو لفترة قصيرة. كان الصنبور يصدر من وقت إلى آخر أصواتاً كانفجارات محرك سيارة. أضيف إلى حلقة الأصوات المزعجة صوت جديد قادم من السقف، هذا الصوت الجديد أخبرني عنه صاحب المكتبة التالي: هذا الشيء غير مهم،

القاطنون فوقنا يضربون الأرض بالعصي والأرجل كي نقطع هدير الصنبور عنهم. الخلاف بين الجيران في هذه الأمور أمر عادي جداً.

أنا الآخر تحملت أصواتاً أقوى من هذا الصوت كثيراً.

في هذه الفترة خرج صوت زوجة صاحب المكتبة وهي تصرخ:

ـ أغلقوا السِكر.. أغلقوا السكر.

كان من المفروض دون أي شك، بأن أول عمل يجب القيام به هو إغلاق السكر ولكن قبل ذلك كان علي أن أجد مكان السِكْرِ. وعندما أغلقت السكر بعد بحثٍ طويل عنه انقطعت الأصوات والمياه.

في تلك الليلة وللمرة الثالثة كان صاحب البيت يقودني إلى فراشي طالباً من الله أن أنام مرتاحاً. كنت أشعر بنعاس شديد، لكن تعب تلك الليلة المسعورة وتوتر أعصابي حالا دون أن يغمض لي جفن. وبينما كنت على وشك النوم وإذ بصوت جديد، صوت قرقعة فريدة من نوعها لم أسمع مثلها أبداً.. وفي كل واحدة تتنبه أعصابي.. فأفتح عينيَّ... فكرت طويلاً في مصدر هذا الصوت الخانق ـ كصوت حيوان كبير. هل هي أصوات الدواليب، أم أصوات عصاً غليظة وهي تضرب على أوتار الفيولا؟ وكلما حاولت أن أغمض عيني وأنام، أقفزُ من فراشي وتشتد ضربات قلبي هلعاً من هذا الصوت. وفي النهاية فهمت أن مصدره كان باب غرفتي عند كل حركة فتح وإغلاق صغيرة. من تشابك أصوات الأبواب في المنزل يتكون صوت فريد من نوعه، أشبه بفحيح الأفاعي، وشخير حيوان يُذبح.

والشيء المهم أن الحركة إلى بيت الخلاء قد هدأت قبل بزوغ الفجر. وبينما كنت على وشك النوم سمعت مواء قطةٍ بجانبي جعلتني أقفز من مكاني صارخاً. قطة كانت تخربش على باب غرفتي وتموء باستمرار. هذه القطة نفسها التي التفت بين قدمي وأنا ذاهب إلى بيت الخلاء، كانت

على ما أعتقد، قد اعتادت النوم في هذه الغرفة، ولهذا كانت تحاول الدخول إليها بالخربشة والمواء دون توقف. انتظرت طويلاً لعل القطة تتراجع عن عنادها، فتحتُ لها الباب، فاندفعت كالبرق إلى الفراش. ربما اعتادت النوم في هذا الفراش، أما أنا فلم أكن معتاداً النوم مع قطة وجهاً لوجه. تركت لها الفراش وجلست بعض الوقت فوق الأريكة إلا أنني لم أتمالك نفسي ونعاسي فعدت إلى الفراش واضطررت إلى النوم في حضن القطة. كانت القطة معتادة على الفراش بحيث، سمحت لنفسها أن تأخذ مكاناً في حضني وغطت في نوم عميق. وبعد خمس أو عشر دقائق من نومها بدأت براغيث القطة تدخل جسمي وشرعت بالحكاك. أشعلت المصباح وبدأت اصطاد البراغيث من ثيابي الداخلية. في النهاية رفعت رايتي البيضاء وتركت الفراش للقطة وتمددت فوق الكرسي عارياً. رفعت رأسي ، فتحت الستارة، ونظرت إلى الخارج، كانت السماء قد بدأت بالضياء رويداً رويداً. عندها وضعت يدي فوق ركبتي محاولاً النوم ولو قليلاً وإذا بأصوات الأطفال تخرج من الغرفة الثانية، استيقظت من جديد، فرأيت طفلان يدخلان إلى غرفتي، عُمرُ أحدهما أربعة أعوام والآخر ثلاثة، أما الثالث فأعتقد أنه كان يخلد إلى النوم في حضن أمه، سألني أحدهم: لماذا لا تنام في الفرشة، ولماذا أنت جالس هكذا بالسروال الداخلي على الكرسي، فقلت له إن القطة قد استولت على الفراش، سألني الطفل الثاني وهو الأصغر على ما أعتقد. هل الفراش لا يتسع لك مع القطة وهو يضحك بصوت عال. ودخل الفراش وأراني كيف يتم تقاسمه مع القطة:

- انظر هكذا.

كانت أعصابي قد توترت كثيراً، شتمت الأطفال ناسياً أنهم أطفال صارخاً:

- انقلعوا إلى غرفتكم!!

قالوا إن هذه الغرفة غرفتهم وأنهم في كل صباح يستيقظون ويأتون إلى هنا حيث والدهم ينام مع القطة.

بدأت أفهم كل كبيرة وصغيرة تجري في هذا البيت، ولكن الشيء الذي لم أفهمه، هو لماذا لا تهاجم الفئران الموجودة في الغرفة وبأعداد كثيرة؟ ولا تخرج صوتها أبداً، والذي لم أفهمه، عرفته من الأطفال بعد ذلك،. وهو أن القطة والفئران ترعرعوا وعاشوا معاً، واعتادوا على بعضهم. حتى أنه في العام الماضي، عندما وضعت القطة صغارها، صادف أن فأراً صغيراً رضع حليب القطة. أي أن القطة أرضعت فئران صغاراً. وقالا: لقد وضعنا صغار القطط أمام اللحام في السوق.

عندها فهمت أنني غير قادر على إخراج الأطفال من الغرفة، لبست ثيابي كاملة وبدأت أمشي جيئة وذهاباً داخلها ومن خلال تجربة الليلة الماضية لم أقترب من بيت الخلاء لقضاء الحاجة ومن المغسلة لغسل يدي ووجهي، خوفاً من تكرار الحادثة. حتى مجرد التفكير من الاقتراب منهم. ثم تعرفت على صوت صفير الباخرة، وصوت صفارة بدء دوام العمل في المعمل. صفير قطار... وصوت انفتاح الصنبور لمرات. وهو يحدث صوتاً يشبه صوت كلب متوحش. وصوت سلسلة الشلال في الخلاء. بدأ الضوء ينتشر في قبة السماء .. أما أنا فكم تمنيت البقاء في الظلام، وفي ذلك البيت، لأنه مع انتشار الضوء، ظهر الذباب الأسود فجأة، بأعداد كبيرة جداً ولم أستطيع الدفاع عن نفسي لكثرتهم. كان الذباب يحط على أنفي وفمي وعيناي وخاصة فوق شفتي.

وبينما كنت أدافع عن نفسي من الذباب أطلق الشقيقان المهدان في الفراش ضحكة عالية هذه الضحكة قد أوصلت التوتر إلى أعصابي لأبعد نقطة. صرخت في وجههم:

ـ ما الأمر الذي يضحكك؟.

أدى صراخي إلى تزايد ضحك الأطفال. وبينما كانا يلعبان داخل الفرشة، بدأا يتشاجران بعنف، ويضربان بعضهما. حاولت أن أفرقهم عن بعضهم والحمد لله طُرِقَ الباب، قلت: تفضلوا.

دخل أب الأطفال وهو يقول: صباح الخير، طرد الأطفال من الغرفة وهو يشتمهم.

كنت عاقداً العزم بالتوجه إلى أول طائرة تقلني إلى استانبول ومع الأسف الشديد، الطائرة الأولى كانت ستنطلق بعد ثلاثة أيام. بعد قليل جاء قريب الشاب وجمع الرجلان الفرشة واللحاف وأخرجاهما من الغرفة.

جاءت المرأة مع أطفالها الثلاثة هي الأخرى، سألني الشاب إذا كنت قد نمت مرتاحاً ولكوني ضيفاً كان يجب علي أن أقول: قضيت ليلة ممتازة.

قال صاحب البيت: طبيعي جداً يا روحي البيت شيء والفندق شيء آخر.

وقال الآخر: هل يستوي المنزل والفندق.

قال صاحب المكتبة: الأمر عندنا يختلف عن المدن الكبيرة عندكم.

سألته: كيف يعني؟

هنا من العيب الكبير أن ينزل الضيوف الأعزاء في الفنادق.

سحبت المرأة الطاولة إلى وسط الغرفة وأتت بطعام الإفطار.

الحالة لم تتغير معي في الليلة الثانية والثالثة، ولكن في الليلة الثالثة كنت قد تكومت كقربة ماء ورحت في سبات عميق. ولم أدر هل هو السبب في قلة النوم أم اعتيادي على حياة هذا المنزل.

في اليوم الثالث كنت أغادر تلك المحافظة.. وبينما كنا في الطريق إلى المطار قال الشاب وقريبه وهما يودعاني:

ـ هذه الزيارة غير محسوبة، لا تتأخروا علينا، تعالوا تفضلوا.. نحن في انتظاركم.

كم كانوا أناساً طيبين كرماء وعلى نياتهم، شكرتهم على ضيافتهم، وشعرت أنني قضيت بينهم أياماً جميلة لا تنسى.

○ ○ ○

البيت الذي فوق الحدود

في اليوم التالي لانتقالنا إلى البيت بادرني العجوز الجالس خلف نافذة البيت المجاور الواقع على يمين الطريق المؤدية إلى دارنا قائلاً

ـ لو لم تستأجروا هذا المنزل لكان خيراً لكم.

نظرت إلى العجوز بقسوة وقلت:

ـ ما أعرفه أنه عندما ينتقل إنسان ما، أو تستأجر عائلة ما بيتاً، يجتمع الجيران عندهم يباركون ويقولون لهم: «تسكنون بأمان وسلام إنشاء الله».. ولا يقولوا: «لو لم تنتقلوا إلى هذا البيت لكان خيراً لكم»! فهل مثل هذا الكلام يقوله الإنسان لجاره الجديد؟!

قال العجوز وكأنه لم يسمع شيئاً:

ـ واجبي أن أخبركم لأن اللصوص يدخلون هذا البيت كثيراً، يعني أن اللصوص يدخلون بيتنا ولا يدخلون البيوت الأخرى؟

من شدة غضبي ذهبت إلى البقال الكائن على زاوية الطريق لأشتري علبة سجائر.

قال البقال:

ـ خير إنشاء الله.

ـ قال لي العجوز الجالس هناك أمام النافذة.. «اللصوص يدخلون بيتكم كثيراً.. لو لم تستأجروا هذا البيت لكان خيراً لكم».

قال البقال كلام العجوز صحيح.. لو لم تستأجروا ذلك البيت لكان خيراً لكم.. لأن اللصوص يدخلونه كثيراً.

خرجت من الدكان.. دون أن أقول شيئاً، بقيت منزعجاً طيلة النهار وعصبياً.. وفي الليل زارتنا العائلة التي تسكن إلى يسارنا.. قال جارنا وهو يودعنا عند منتصف الليل:

ـ هذا البيت جميل جداً.. ولكن اللصوص يقصدونه..

لم أستطع أن أسأله وأنا أوصله حتى الباب: «لماذا يدخل اللص هذا البيت ولا يدخل بيتكم؟»

عندما رأتني زوجتي متضايقاً.. ضحكت وقالت:

ـ شو ولك حبيبي..؟ ألم تفهم يعني..؟ الناس يفتشون عن أية وسيلة لإخراج المستأجر من البيت.. وربما هذه إحدى الطرق ليخرجونا من المنزل فيقولون.. اللصوص يدخلون هذا البيت. ربما لرخص الإيجار.. وربما يريدون أن يأتوا بأحد أقربائهم أو أصدقائهم بدلاً منا.

اقتنعت بكلامها إلى حد ما.. ولكن لم يغمض لي جفن حتى الصباح، وكأن اللصوص أعطوني موعداً.. لقد جاء.. على وشك الدخول.. كنت أنتظر هكذا.. وإذا بي غفوت قليلاً، واستيقظت على صوت خافت.. تحركت من السرير بسرعة البرق.. وأخذت المسدس الذي كان تحت وسادتي وصرخت نحو الظلام:

ـ لا تتحرك.. وإلا قتلتك.

وبما أننا انتقلنا حديثاً .. لم أهتدِ إلى مفتاح الكهرباء.. ولكي أجده كنت أضرب نفسي من جدار إلى جدار.. وفجأة تعثرت بشيء ما.. وسقطت على الأرض محدثاً ضجة قوية.. كنت سأفرغ محتويات المسدس في العتمة، ولكن أثناء سقوطي على الأرض سقط المسدس في طرف.. وسقطت أنا في طرف آخر.. وصدر صوت من وسط العتمة.

ـ هاه.. هاه.. هاه.

ارتفع الصوت الذي تقشعر لهوله الأبدان ويجعل شعر الجسم مثل الشوك.

صرخت بقوة:

- ولك.. أنقوم بتمثيل فيلم محلي يا حقير.. إن كنت رجلاً.. اظهر أمامي.

- على الأغلب كنت تبحث عن زر المصباح الكهربائي.. إنه على الجانب الأيمن من الباب.. كل المستأجرين الجدد يقعون في هذا الإشكال ويلقون المصاعب الجمة للوصول إليه. كان الصوت قادماً من الظلام. صرخت:

- هل تعرفني..؟ وإذا كنت تعرفني.. ألا تعلم ماذا أفعل بالرجل الذي أمسكه..؟

قال الرجل الواقف وسط العتمة:

- أعرف.. ولكن اسمح لي أن أساعدك.. بفتح النور.

سمعت صوت مفتاح الكهرباء وانتشر النور داخل الغرفة.. كنت تحت الطاولة بعد أن وقعت وزوجتي تحت الديوانة.. وثمة رجل مثلي يقف وسط الغرفة.

لو كنت واقفاً.. لما خفت من الرجل.. فقلت له وأنا أضخم صوتي، عسى ولعل لا يفهم ماذا سأفعل وأنا ممدد على الأرض.. وسألته:

- من أنت؟

- أنا لص.

- انظر جيداً.. لن تنطلي عليَّ هذه اللعبة.. أنت لست لصاً.. تقول ذلك كي تخرجنا من المنزل. انظر إلى عيوني.

قال الرجل:

ـ الآن تعرف.. إن كنت سارقاً أم غير سارق.

وصار يقلب أمتعة المنزل.. وكأنه في منزل أبيه.. يعزل ما يعجبه منها.. دون أن يتوقف عن الكلام.

ـ إذن.. جعلت هذه الغرفة للنوم.. المستأجرون الذين سكنوا قبلكم استعملوها للجلوس.. وكذلك من سكن قبلهم.

قلت له:

ـ انظر أنت تسرق.. أما أنا فسأشكوك.

قال دون أن يرفع رأسه:

ـ اذهب.. اشتك.. حتى لأبيك وبلغه سلامي.

ـ ولكنك ستهرب عندما أذهب إلى المخفر.

ـ لن أهرب.

ـ والله ستهرب.. وستحمل معك كل شيء. لذلك سأربطك جيداً ثم أذهب إلى المخفر.

صرخت زوجتي بقوة:

ـ النجدة..

على الأغلب.. كان سكان الحي ينتظرون أمام باب منزلنا.. دخلوا البيت على الفور.. وكانوا يقولون فيما بينهم.. دون أن ترتسم الحيرة والعجب على وجه أي منهم:

ـ آ آ آ.. لقد دخل اللص هذا البيت ثانية.

وصاروا يتساءلون:

ـ لنرَ أياً منهم دخل هذه المرة..

كان بعض الجيران على معرفة باللص.. وكانت بينهم مودة على ما

أعتقد.. وظل اللص يرفع الأمتعة دون توقف، أو خوف من أي إنسان كان.. قلت:

ـ ساعدوني يا جيران.. على ربط هذا اللص.. لأخبر المخفر. قال أحدهم:

ـ والله.. أنت تعرف مصلحتك أكثر منا.. ولكن أعتقد أنك تتعذب دون جدوى..

تملكتني الحيرة إلى أية منطقة انتقلنا؟.. أحضرت زوجتي أسلاك الغسيل.. والسارق لم يعارضها أبداً.. ربطنا الرجل بشكل جيد ووضعناه في غرفة.. وأقفلنا الباب عليه. وأسرعنا إلى المخفر. قصت زوجتي كل ما حصل معنا للمفتش.. سألها المفتش عن مكان البيت فأخبرته قال:

ـ ها ا ا ا.. ذلك البيت..آ..؟

قلت:

ـ نعم ذلك البيت..

ـ لا دخل لنا به.. لأنه خارج منطقتنا.

ـ إذن.. وماذا سنفعل..؟ لأننا ربطنا الرجل المسكين لله تعالى.

ـ لو سكنتم في البيت الذي يليه.. إنه ضمن منطقتنا.. نستطيع التدخل فيه.

ـ ولكن البيت لم يكن فارغاً.. ماذا نفعل يعني؟..

قالت ذلك زوجتي

كان بيتنا.. على المنطقة الحدودية تماماً.. بين المخفرين..

قال المفتش:

ـ بيتكم تحت حماية المخفر الثاني.

المخفر الذي تحدث عنه.. بعيد جداً.. وصلناه مع بزوغ الفجر.. وقصصنا لهم كل شيء.. سألونا عن مكان منزلنا.. فأرشدناهم. قال أحد أفراد الشرطة:

ـ ها ا ا.. ذلك آ.. ؟

قلت:

ـ نعم ذلك المنزل.

ـ لو كان منزلكم قبل بيت واحد.. لنظرنا في شكواكم هذه.. هذا البيت.. خارج منطقتنا.

قالت زوجتي:

ـ واه.. واه.. لقد ربطنا الرجل جيداً.

سألته:

ـ حسناً فإلى أية منطقة يتبع منزلنا؟

قال الشرطي:

ـ منزلكم يقع تحت مسؤولية الدرك.. الشرطة لا تتدخل فيه. يجب أن تذهبوا إلى مخفر الدرك.

تركنا المخفر.. فقالت زوجتي:

ـ بالله عليك.. يجب أن نذهب إلى البيت قبل أي مكان لنلقي نظرة على اللص.. هل مات أم لا..؟

كلامها صحيح فقد يموت السارق بعد ربطه بقوة.. من جراء توقف دورته الدموية.. فنكون بحادث واحد.. ونصبح بحادثين وهو موته أيضاً.

ذهبنا إلى البيت.. فوجدنا السارق مثلما ربطناه تماماً.

قلت له:

ـ كيف حالك؟

قال:

ـ أنا بخير.. ولكن أحس بالجوع.

جهزت زوجتي بعض الطعام للص.. ولسوء الحظ.. كان اللص لا يستسيغ البامياء التي أعدتها.

ذهبت إلى اللحام واشترت لحماً.. وطبخته ووضعته أمام السارق. وذهبنا إلى مخفر الدرك لنشكو السارق.. قصصنا لهم كل شيء.. سألنا قائد الدرك عن مكان البيت.. وعندما أعلمناه قال:

ـ ها ا ا ا.. ذلك البيت.. آ آ.

الجميع يعرف بيتنا.. قال قائد الدرك:

ـ الدرك لا يتدخلون في منطقة بيتكم.. لأنها تابعة للشرطة.

قلت:

ـ آمان.. يا سيدي.. نذهب إلى الشرطة.. يقولون لا علاقة لنا بالأمر.. يرسلوننا إليكم.. وجئناكم.. والآن ترسلوننا إلى الشرطة.. لا بد أن يكون بيتنا تابعاً لجهة ما تكون مسؤولة عنه.

أخرج قائد الجندرمة خريطة وقال:

ـ انظر.. هل تفهم بالخرائط.. هذه المنحنى رقم (١٤٠) وهذا جهاز قياس الأمطار.. وهذه النقطة هي الهضبة ذات الرقم (٢٠٨).. وكما ترى.. منطقة الدرك تمر من هنا.. لو أن المنزل الذي تسكنونه.. بُني قبل مترين شمال غرب لدخل نطاق منطقتنا.

ـ ولك روحي من أجل مترين.. ماذا يحصل لو تدخلتم؟

ـ تقول ماذا يحصل أليس كذلك؟ ما يحصل أنت لا تعرفه، نحن نعرف فقط (وأشار إلى الخريطة).. انظر.. بيتك هنا تماماً فوق نقطة

الحدود التي تفصل بين منطقتي الشرطة والدرك.. هل فهمت..؟ منطقتنا تمتد داخل حديقة منزلك مسافة مترين ونصف، والسرقة لم تتم في الحديقة.

ما من حل أمامنا سوى الذهاب إلى الشرطة مرة أخرى. قالت زوجتي:

ـ آمان.. لنذهب إلى البيت مرة أخرى لنلقي نظرة على اللص.. لا سمح الله.. إذا مات.. نقع في مصيبة أكبر.

ذهبنا إلى البيت.. قلت للص:

ـ كيف حالك؟

ـ إنني أحترق.. أريد ماء على وجه السرعة.

شرب الماء وقال:

ـ انظروا.. إنني احذركم.. فأنتم تقيدون حريتي.. ليس لكم حق في ذلك.. عندما سأخرج من هنا.. سأرفع دعوى مستعجلة ضدكم.

قلت:

ـ وماذا سنفعل ولك أخي..؟ لا أحد يعرف إلى أي جهة يتبع منزلنا.. حتى نشكوك إليها. هل من المعقول.. أن يبنى منزل في هذه المنطقة (المحايدة) لقد شيدوا هذا البيت على الحدود تماماً.

قال:

ـ أي ي ي ي ي .. ألم أقل لكم.. اتركوني.. وإلا سأرفع دعوى ضدكم بجرم تقييد حريتي.. وأجعلكم تقادون إلى المحاكم سنين عديدة.

قلت:

ـ أعطنا فرصة حتى المساء.. لنذهب إلى الشرطة مرة أخرى.

ـ إذهبا حيثما تريدان.. أما أنا فأعرف كل شيء أكثر منك ومنذ سنين

عديدة.. قبل كل شيء يجب أن يقرروا إلى أية جهة يتبع بيتكم.. أو سيغيرون نقاط الحدود.. وحتى ذلك الوقت.. هوهو..

ذهبنا إلى الشرطة مرة أخرى.. في هذه المرة أخرج المفتش خريطة وقال:

ـ انظر.. هذه منطقة الدرك.. الحديقة تابعة لهم.. وقسم من البيت يتبعونا.. والقسم الآخر للدرك.

قلت:

ـ غرفة النوم تابعة لكم.. وفعل السرقة حصل هناك.

قال:

ـ كلامك صحيح.. ولكن يجب أن نتأكد من ذلك. ثم إن هذا الحرامي لم يدخل غرفة النوم طائراً.. أنت معي..! دخل من الحديقة.. والحديقة تابعة للدرك.. هذا ليس جديداً علينا.. إن تمت مناقشة الموضوع.. سنضع حلاً نهائياً بالنسبة لمنزلكم.. ولأية منطقة سيتبع.

فيما كنا عائدين إلى المنزل.. وإذا بذلك العجوز يقول:

ـ حمداً لله على السلامة.. يقولون إن لصاً قد دخل منزلكم.

قلت:

ـ نعم..

قال:

ـ بما أنه لا أحد يستأجر بيتكم هذا.. أعطوكم إياه بأجر بخس.. صاحب البيت نفسه لا يسكن فيه.. ولم يجد مستأجراً غيركم.. كان سيهدم المنزل.. ويزيحه متران. عندها يتبع للمنطقة.. ولما وجدكم.. غير رأيه.

قالت زوجة العجوز:

ـ الذنب ليس ذنبكم.. بل ذنب صاحب البيت.. عندما يبنون بيوتهم يفكرون بالماء والكهرباء والغاز والمنظر.. ولا يفكرون لأي منطقة سيتبع.. هل يبني الإنسان منزلاً على الحدود تماماً؟

كنا قد أعطينا الإيجار سلفاً ولمدة عام. ولم يكن بمقدورنا ترك المنزل.. دخلنا بيتنا.. جلس السارق أمامنا.. وتناولنا طعام العشاء معاً ثم قال:

ـ أستودعكم الله.. الآن.. سأعود قريباً.

اللصوص الخمسة الذين يقصدون منزلنا.. كل سكان الحي يعرفونهم.. كما إننا تعاونا معهم بعض الشيء.. كي لا يعتاد علينا سارقون من غير منطقة.. سنرى ماذا سيحصل؟ إما أن نبقى في المنزل حتى انتهاء العقد.. أنا وزوجتي وستة لصوص. أو يتبعونه إلى منطقة ما.وعندها لن يقصدنا اللصوص بالتأكيد.. لأننا سنشكوهم للمخفر الذي نتبعه.. وبما أننا اعتدنا على بعضنا ستكون شكوانا عيباً. فقد كانوا ينفقون على المنزل مثلنا تماماً.

O O O

كيف تم القبض على حمدي الفيل؟

أرسلت مديرية أمن استانبول تلغرافاً أو برقية إلى كل مديريات الأمن في الولايات النائية.. هذا نصها:

«عمره خمسة وثلاثون عاماً.. طويل القامة.. وزنه مائتا كغ.. حنطي اللون.. ثلاثة من أسنانه ناقصة.. في فكه العلوي سن معبأ.. ونابه السفلي مغلف بالذهب.. ثيابه بنية اللون.. مخططة.. أكثر شعره متساقط.. وجهه عريض.. عيناه بنيتان.. نصَّاب من الدرجة الأولى.. وله عدة سوابق، ويلقب بـ (حمدي الفيل). هذا الإنسان..هرب من قبضة اثنين من رجال الشرطة بعد أن بقيا يومين وليلتين كاملتين دون نوم.. وجد فرصته السانحة عندما نام رجلا الشرطة. وبعد التحقيقات والتدقيقات والتعقيبات التي قمنا بها، استنتجنا أن حمدي الفيل قد هرب فعلاً. وإذا ما مر إلى أحد المخافر التابعة لنا.. أو لإحدى الولايات النائية. أو إذا ما صادف أحد رجال الشرطة.. وسأله عن عنوان.. أو طريق فقولوا له: إن مديرية أمن استانبول تنتظركم بحرارة.. وعليه أن يسلم نفسه لمديريتنا.. بالسرعة القصوى مرفقاً بصورة حمدي الفيل».

في إحدى الولايات النائية.. ثمة شرطيان يتحدثان في إحدى المحطات:

ـ ولك أخي رمضان.. أليس هذا الرجل الذي يشرب السحلب.. (حمدي الفيل).

ـ هيييه.. يشبهه.. أخرج الصورة لنرى.

أخرج الصورة وقدَّمها لزميله:

ـ ولكن البرقية التي وصلتنا تقول أنه بدين.. هذا الرجل ضعيف مثل الهيكل العظمي.

ـ ربما ضعف ولك أخي.

ـ معك حق.. ولكن هذا أسمر اللون.. ويقولون أن حمدي الفيل حنطي اللون.

ـ ربما تغير لونه بسبب تجواله في البراري والقفار.

ـ أنت على حق ولك أخي.. ولكن شعر هذا الرجل كثٌّ وأسود.. وتقول البرقية.. شعر حمدي الفيل متساقط..

ـ إيه.. ربما وضع شعراً مستعاراً على رأسه.

ـ ماذا تقول..؟ لنقبض عليه.

يقتربان من الرجل:

ـ ما اسمك؟

ـ حمدي.

ينظران في عيون بعضهما ويضحكان بمعنى:

ـ هيا امش إلى المخفر..

ـ ماذا هناك..؟ ما الذي حصل..؟

ـ لا تسأل كثيراً.. تعلم في المخفر.

وهناك شرطيان يقبضان على رجل يمر من طريق إسفلتي لا يتعدى طوله كيلومترين أو أكثر في إحدى الولايات النائية.. كما هو الحال في كل الولايات البعيدة النائية.

ـ افتح فمك!

ـ لا يوجد شيء في فمي.

ـ بما أنه لا يوجد شيء.. يجب أن تفتحه.

يفتح الرجل فمه.. ينظر الاثنان معاً إلى أسنانه.. يسأل أحدهما الثاني:

ـ انظر إلى البرقية.. كم سناً ناقصاً قالوا في فمه؟

يقرأ الآخر الورقة:

ـ ثلاثة أسنان..في الفك العلوي.. وسن محشوة. والناب في الفك السفلي الأيسر مغلف بالذهب.

أحصى أحد الشرطة أسنان الرجل:

ـ واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. توقف لقد أخطأت.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة خمسة.. أربع وعشرون.. له أربع وعشرون سناً.

ـ تقول أربع وعشرون.. فما عدد الأسنان الناقصة..؟ هل تعرف كم يبلغ عدد الأسنان التي سقطت من فمك؟

ـ ثمانية.

ـ أكيد اقتلعها ليخفي الأدلة.

ـ أنا لا أملك سناً واحداً اصلياً إنها اصطناعية.. حتى أن أربعة منها انكسرت وأنا آكل الذرة.

ـ هل كُتب في البرقية إذا كان هناك أسنان تقليدية؟

ـ لم يكتبون.. يبدو أنهم سهوا عن ذلك.. هذا هو ولك روحي.. هو نفسه.. انظر إلى نابه الأيسر إنه مطلي بالذهب.. هيا يا سيدي تعال معنا.

ـ إلى أين؟

ـ إلى المخفر هيا..

مئات البرقيات كل يوم ترسلها مديريات الأمن النائية إلى مديرية أمن استانبول.

«جواباً للبرقية ذات الرقم الفلاني وذات التاريخ الفلاني»

لقد تم القبض في ولايتنا على أربعة عشر من حمدي الفيل.. منهم أربعة عشر يلبسون اللون البني.. وثمانية أنيابهم.. مغلفة بالذهب.. أنتظر ردكم.. هل نستمر بالمراقبة والقبض على حمدي الفيل.. أم ماذا نفعل.. نرجو الإعلام.. مع خالص التحيات.

«جواباً على برقيتكم المؤرخة بتاريخ فلان الفلاني.. وذات الرقم الفلان الفلاني تم القبض على دزينتين من حمدي الفيل.. تتراوح أوزانهم بين ١٨٠ إلى ٢٢٠كغ.. وهذا الفرق.. قد نتج من عيار القنطار.. وليس عندنا أية شبهة على الإطلاق.. بأن هؤلاء هم كلهم حمدي الفيل.. وكلهم قد سيقوا لطرفكم.. أما الباقون الذين فروا عن أنظارنا فنحن نجد بالبحث عنهم للقبض عليهم وسوقهم إليكم.

مع التحيات»

البرقية التي أرسلت من مديرية أمن استانبول.. إلى مديريات الأمن في الولايات النائية البعيدة.

«بما أن كل المحلات والسجون قد امتلأت.. بحمدي الفيل.. يطلب إليكم عدم إرسال آخرين إلينا.. لأن الموجود عندنا يكفينا ويزيد.. وحتى نصدر أمراً آخر.. نرجو أن توقفوا البحث والقبض على حمدي الفيل الآخرين.

مع خالص شكرنا

- NOTE: لقد تم القبض على حمدي الفيل الهارب.

○ ○ ○

المحتويات

ألا يوجد حمير في بلدكم؟

هل يتمنى الكتاب الموت لأنفسهم؟ ربما الاختصاصيون منهم يعمدون إلى تسجيل مشاعرهم وأفكارهم علىٰ آلة تسجيل قبل موتهم. لو استطعت كتابة وصيتي قبل موتي لكانت المادة الأولى منها «أن لا تُقام لي جنازة»، ولا إعلانات في الصحف والمجلات، ولا أريد حزناً لا كلمة رثاء، ولا أن يعرف أحد قبري. وأن يحملوا جسدي إلى أحد المشافي الحكومية لتدريب الأطباء الشباب، ليستفيد جميع أفراد الشعب مما عملته وادخرته وكتبته. وأود أن تكون أهم مادة في وصيتي: إخفاء جميع ملفات حياتي الخاصة، كتاباتي للنساء اللواتي أحببتهن واللواتي خدعنني، برسائلهن، وصورهن...

لقد ضمَّن عزيز نيسين هذا الكتاب الذي أحبه كثيراً، (طُبِعَ واحد وتسعون مرة خلال ثلاث سنوات) ذكرياته، خواطره، أشعاره النقدية، رسائل حبه، بعض قصصه الساخرة وغير الساخرة، تجاربه، مآسيه وتضحياته.

AXIELL
800 37 52 0152 F7